Arab Philosophers Series

14 Vols

يوحنّا قمير

ابن الفارض

مقدمات في التصوف

◎

دراسة – شعر مختار

طبعة ثالثة منقّحة

المطبعة الكاثوليكية
بيروت

هذه دراسة في التصوف وابن الفارض ، تليها دراسات في فلاسفة العرب ومفكريهم ، وقد تليها اخرى فيمن اثروا في الفكر العربي وتأثروا به . هدفنا من ذلك احياء تراث ، ونشر فكر ، ورسالة حق . وقانا الله من النطق بالباطل ، والزيغ مع الهوى .

ي . ف

حين يقدم باحث على درس التصوف لا بد له من القيام بامرين :

الاول : هو عرض امين لما رواه التاريخ ، اي لما رواه الصوفيون عن انفسهم ، او رواه عنهم الناس .

والثاني : هو الحكم على هذه الرواية من حيث امكانها ، ووقوعها .

وانّا في دراستنا هـذه لنشأة التصوف الاسلامي وتطوره ، ولسيرة ابن الفارض ومواجده ، قد توخينا جهدنا الامانة ، فنظرنا الى التاريخ بعين من وضعه ، وبلغته كتبناه .

على انّا لم نقُم – الا لِماما – بالحكم على الرواية ، بالفصل بين التاريخ والاسطورة ، بين الحقيقة والوهم . ذاك لانّا نعتقد ان مثل هذا الحكم يفترض حلًّا للمشكلة الصوفية من اساسها ، من حيث ان التصوف سبيل الى الله سويّ ، ومن حيث الشروط الجوهرية لاستواء هذا السبيل ، فيتيسر حينئذٍ الحكم على الظواهر والفروع. وانّا سنحاول حلًّا لهذه المشكلة في غير هذا المكان ، في دراسة جامعة لكبرى معضلات الفكر العربي .

مقدمات في التصوف

ما مصادر الصوفية ؟

كل بيئة دينية توفر في نفوس ابنائها الاخلاص والتفكير قابلة لظهور الروح الصوفية . فالتصوف اذاً ليس محصوراً على عرق ، او لغة ، او امة ، ان هو الا مظهر روحي بشري لا تحده مثل هذه الحدود المادية . . .

هو القرآن يردد المسلم تلاوته ، ويتأمل فيه ، ويقوم بفرائضه ، قد كان في اصل التصوف وعمل على نموّه .

اغرق التصوف الاسلامي في مطالعة القرآن ، وجدّ في قراءة كتاب يؤمن بوحيه ، فكان له منه اظهر خصائصه : كان الذكر ، وكانت مجالس تُتلى فيها آيات القرآن ، او تأملات نثرية وشعرية مماثلة .

ثم تطورت مجالس الذكر هذه ، فكان السماع . . . وكان الوجد . . . والرقص وتمزيق الثياب .

ماسينيون

لا ريب في ان الشعور الصوفي «غير مقصور على عرق ، او لغة ، او امة» (ماسينيون) . . .

وكثيرة آيات القرآن التي تثير في النفس خوف الله وحسابه ، اساس كل زهد صحيح . . .

على ان القرآن اجمالاً لا يبدو كافياً لاثارة الشعور الروحي الداخلي . . . وانه لما يسترعي الانتباه ان اقدم الفرق الاسلامية ، كالخوارج والامامية ، قاومت التصوف ، كما قاومه حديثاً الوهابيون مجددو الاسلام الاول . اليس هذا الاتفاق دليلاً على ان التصوف دخيل في الاسلام . . . هذا التصوف الذي نشأ في سوريا ومصر ، مهد الرهبانية ووطنها المصطفى ؟ . . .

ان التصوف الاسلامي اخذ عن التصوف المسيحي اموراً كثيرة . . . اخذ

التأمل الفردي او في جماعة ، والسهر الطويل ، وتلاوة الكتاب ، وطلبات الذكر . . . وقال بضرورة شيخ مرشد . . . (١)

ثم منذ القرن الثاني الهجري ، . . . حدث اتصال بين البيئات الفكرية الاسلامية والبيئات الارامية من مسيحية ويهودية ، فاطلع المسلمون على الفلسفة اليونانية . . . واستقى الزهد الصوفي من الافلاطونية المستحدثة . . .

ثم توغل التصوف ، بعد ذاك ، في آسيا الوسطى . . . فقلّد متصوفي (Yoghis) الهند في بعض ما يمارسون ، سيما في قولهم بالفناء ، بتلاشي الذات الفردية للاندماج في الله الباقي .

لامنس

ليس القرآن مصدر التصوف ، بل مصادره غريبة . . . ان فتشت عنها لن تجدها الا في النصرانية ، او في الفلسفة اليونانية ، او في ديانات الهند والفرس وفي شيء من اليهودية . وفي الواقع كل هذه العناصر عملت على تكوين التصوف الاسلامي .

كارا ديه ڤو

التصوف الاسلامي هو في حقيقته ظل من ظلال المسيحية ، هو هرب مطلق من الدنيا ، ومن الجاه ، ومن المال . . .

الصوفية جنوا على المسلمين ابشع جناية حين حببوا اليهم الزهد ، وبغضوا اليهم المال . الصوفية هم الذين جعلوا المسلمين اخر الشعوب ، وهم الذين قضوا عليهم بالاستعباد ، وهم الذين اوردوهم موارد الذل والضيم والهوان .

ان اول صوفي تعمق في البحث عن عيوب النفس . . . هو الحارث المحاسبي ، وهذا الرجل الذي كان قدوة لجميع الصوفية كان من اعداء المال . . . وكان رجلًا مسيحي النزعة .

الدكتور زكي مبارك

---

١) قال ابن الجوزي : لبّس ابليس على جماعة من المتصوفة ، فمنهم من اعتزل في جبل كالرهبان ، يبيت وحده ، ويصبح وحده ، ففاتته الجمعة والجماعة ومخالطة اهل العلم .

معالم صوفية

الحسن البصري (٣١ ــ ١١٠ هـ) = (٦٤١ ــ ٧٢٨) :

احتقر حسن العالم ، وخاف الحساب ، فاذا به زاهد محزون ، قضى ، على ما يروون ، اربعين سنة لم يضحك فيها مرة . ترك مواعظ هي من ابلغ خطب الاسلام دعا فيها الى طرح الرياء ، وتنقية القلب وخوف الله وذكره . قال المكي : « كان الحسن اول من أنهج سبيل هذا العلم ، وفتق الالسنة به ، ونطق بمعانيه ، واظهر انواره ، وكشف قناعه . »

من اقواله :

ـ طول الحزن في الدنيا تلقيح العمل الصالح .

ـ ما لهم اكنوا الكِبر في قلوبهم ، واظهروا التواضع في لباسهم ؟ والله لاحدهم اشد عجباً بكسائه ــ كساء الصوف ــ من صاحب المِطرف بمطرفه ! .

ـ ابنَ آدم ، انك تموت وحدك ، وتدخل القبر وحدك ، وتبعث وحدك ، وتحاسب وحدك . ابن آدم ، انت المعني واياك يُراد .

ـ الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك .

ـ النيَّة ابلغ من العمل .

ـ حادثوا هذه القلوب فانها سريعة الدثور .

ـ اذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي جعلت نعيمه ولذته في ذكري . فاذا جعلت نعيمه في ذكري ، عشقني وعشقته ، فاذا عشقني وعشقته رفعت الحجاب بيني وبينه .

الحارث المحاسبي (١٦٥ـ٢٤٣ هـ) = (٧٨١ـ٨٥٧) :

ولد في البصرة ، وعاش في بغداد ، ولقب بالمحاسبي لمحاسبة نفسه على آثامها .

في كتابه « الرعاية لحقوق الله والقيام بها » يدعو الى التوبة ، والزهد ، والاخلاص ، ومقاومة العُجب والرياء ، ومحاسبة النفس ، وتفهم كلام الله .

كتابه « الوصايا » اعتراف سيوحي للغزالي منقذه : رأى انقسام المسلمين الى ٧٢ فرقة ، وسببَ انقسامهم في اتباع الهوى ، ودواءه في الفضيلة ، والفضيلة عند الصوفية ، فسار على طريقتهم :« وجدت فيهم دلائل التقوى والورع ، وايثار الآخرة على الدنيا ، ووجدت ارشادهم ووصاياهم موافقة لائمة الهدى ، مجتمعين على نصح الامة ، لا يرخصون لاحد في معصية ، ولا يقنطون امرأً من رحمة ، يأمرون بالصبر على البأساء والضراء ، والرضى بالقضاء ، والشكر على النعماء ، يحببون الى الله العباد يذكرونهم اياديه واحسانه . »

ومن اقواله :

— ايها المفتون،متى زعمتَ ان جمع المال الحلال اعلى وافضل من تركه فقد ازريتَ بمحمد والمرسلين ، وزعمت ان محمداً لم ينصح الامة اذ نهاهم عن جمع المال ، وقد علّم ان جمعه خير لهم . وما ينفعك الاحتجاج بمال الصحابة ? ودّ ابن عوف يوم القيامة ان لم يؤتَ من الدنيا الا قوتاً.

— ان اول المحبة للطاعات منتزعة من حب السيد تعالى اذ كان هو المبتدئ بها ، وذلك انه عرّفهم نفسه ودلهم على طاعته ، وتحبب اليهم على غناه عنهم ، فجعل المحبة له ودائع في قلوب محبيه .

ذو النون المصري (١٨٠ ـ ٢٤٥ هـ) = (٧٩٦ ـ ٨٥٩) :

تكلم كثيرًا عن الحب ، ورتب « الاحوال والمقامات » الصوفية ، وذالك بلغة كثيرة التشابيه والرموز .

سمع مرّة قوالًا ينشد :

صغير هواك عذبني فكيف به اذا احتنكا
وانت جمعت من قلبي هوى قد كان مشتركا
اما ترثي لمكتئبٍ اذا ضحك الخلي بكى

وكان يهيجه السماع ، فقام ، وسقط على وجهه ، والدم يقطر منه .

شجبه الفقيه المالكي المصري عبدالله بن الحاكم(† ٢١٤ هـ = ٨٢٩) لتعاليمه الصوفية في الجماهير ، واوقفته السلطة في آخر حياته وارسلته الى بغداد حيث سجن مدة الى ان اطلقه الخليفة .

بعض اقوالهِ :

— الصوفية قوم آثروا الله على كل شيء فآثرهم على كل شيء .

— ان لله عبادًا نصبوا اشجار الخطايا نصب اعينهم ، وسقوها بماء التوبة ، فاثمرت ندمًا وحزنًا ، فجنّوا من غير جنون ، وتبلدوا من غير عي ولا بكم ، وانهم لهم البلغاء والفصحاء العارفون بالله وبرسوله . ثم شربوا بكاس الصفا ، فورثوا الصبر على طول البلا . ثم تولهت قلوبهم في الملكوت ، وجالت فكرهم بين سرايا حجب الجبروت ، واستظلوا تحت رواق الندم ، وقرؤوا صحيفة الخطايا ، فاورثوا انفسهم الجزع حتى وصلوا الى علو الزهد بسلّم الورع ، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا ، واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة ، وسرحت ارواحهم في العلى حتى اناطوا في رياض النعيم . وخاضوا في بحر الحياة ، وردموا خنادق الجزع ، وعبروا جسور الهوى ، حتى نزلوا

بفناء العلم ، واستقوا من غدير الحكمة ، وركبوا في سفينة العطية ، واقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا الى رياض الراحة ، ومعدن العز والكرامة .

— تمنيتُ ان اراك ، فلما رأيتك غلب دهشة السرور فلم املك البكاء .

— بينما اسير في انطاكية اذ انا بجارية كانها مجنونة ، وعليها جبة صوف ، فسلمت عليها ، فردت عليَّ السلام ثم قالت : الست ذا النون المصري ؟ فقلت عافاك الله كيف عرفتني ؟ فقالت عرفتك بمعرفة حب الحبيب .

— بينا انا مار في شوارع مصر ، اذ رأيت جارية مسفرة بغير خمار ، فقلت لها : يا جارية ! اما تستحين ان تمشي بغير خمار ؟ فقالت : يا ذا النون ، ما يصنع الخمار بوجه قد علاه الاصفرار ؟ فقلت ومن اي شيء علاه الاصفرار ؟ قالت : من محبته . قلت : يا جارية ، عساك تناولت شيئاً من شراب القوم ! فقالت : اسكت يا بطال ! شربت بكاس ودّه ونمت مسرورة ، فاصبحت بحب مولاي مخمورة .

٭

ابو يزيد البسطامي († ٢٦١ هـ = ٨٧٤)

متقشف متطرف في تقشفه ، وزاهد مثال الزاهدين .
نسب الى نفسه معراجاً كمعراج النبي فنفي مرات .
له اقوال يتصف فيها بصفات الله .
بقي له نتف مبعثرة منها :

— كنت اثنتي عشرة سنة حداد نفسي ، وخمس سنين مرآة قلبي ، وسنة انظر فيما بينهما ، فاذا في وسطي زنار ظاهر فعملت في قطعه اثنتي

عشرة سنة ، نظرت فاذا في باطني زنار فعملت في قطعه خمس سنين انظر كيف اقطع فكشف لي ذلك ، فنظرت الى الخلق فرأيتهم موتى، فكبرت عليهم اربع تكبيرات .

— ان الله سبحانه وتعالى كفاني مؤونة النساء حتى لا ابالي استقبلتني امرأة او حائط .

— احببت الله حتى ابغضت نفسي،وابغضت نفسي حتى احببت طاعةالله.

— طلبت قلبي ليلاً من الليالي فلم اجده ، فلما كان في السحر سمعت قائلاً يقول : يا ابا يزيد ، هوذا تطلب غيرنا !

— من قتلته محبته فديته رؤيتهُ ، ومن قتله عشقه فديته منادمته .

— الجنة هو الحجاب الاكبر ، لان اهل الجنة سكنوا الى الجنة ، وكل من سكن الى الجنة سكن الى سواه فهو محجوب .

ان لله خواصاً من عباده ، لو حجبهم في الجنة من رؤيته ساعة استغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث اهل النار بالخروج من النار .

— ان آدم باع حضرة ربه بلقمة .

— تالله ان لوائي اعظم من لواء محمد ، لوائي هو من نور تحته الجن والانس كلهم مع النبيين .

— لئن تراني مرة خير لك من ان ترى ربك الف مرة .

— دخل ابو يزيد مدينة فتبعه منها خلق كثير ، فالتفت اليهم فقال : اني انا الله ، لا اله الا انا ، فاعبدوني ! فقالوا : جن ابو يزيد ! فتركوه.

— اراد موسى ان يرى الله تعالى ، وانا ما اردت ان ارى الله تعالى ، هو اراد ان يراني .

— طاعتك لي يا رب اعظم من طاعتي لك .

— سبحاني ما اعظم شأني !

الحسين بن منصور الحلاج (٢٤٤؟ـ٣٠٩هـ)=(٨٥٨؟ـ٩٢١) :

ذروة المتصوفين ، وشهيد الاتحاد بالله .

بعد خلوة في بغداد امتدت الى سنة ٢٦٠ هـ ، خرج الى الدعوة يعظ الزهد والتصوف في خراسان والاهواز والهند وتركستان . وعاد الى بغداد سنة ٢٩٦ هـ فذاع صيته ، وكثر تابعوه ، وانتشرت اقواله الحلولية من مثل « انا الحق » ، فاوقفته السلطة العباسية ، وسجنته ، وحاكمته ، ثم جلدته وصلبته ، ثم قطعت رأسه واحرقت جسده . قال ابراهيم بن فاتك : « لما اتي بالحسين بن المنصور ليصلب رأى الخشبة والمسامير فضحك كثيراً حتى دمعت عيناه ، ثم . . ذكر اشياء لم احفظها ، وكان مما حفظته : اللهم . . . بحق قدمك على حدثي . . . ان ترزقني شكر هذه النعمة التي انعمت بها علي ، حيث غيبتَ اغياري عما كشفت لي من مطالع وجهك ، وحرمت على غيري ما ابحت لي من النظر في مكنونات سرك ، وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك ، وتقرباً اليك ، فاغفر لهم ، فانك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما فعلوا ، ولو سترتَ عني ما سترت عنهم لما ابتليتُ بما ابتليت . فلك الحمد فيما تفعل ، ولك الحمد فيما تريد . ثم سكت وناجى سراً . فتقدم ابو الحارث السياف فلَطمه لطمة هشم انفه ، وسال الدم على شيبه . . . وكادت الفتنة تهيج ففعل اصحاب الحرس ما فعلوا . »

له مقاطع شعرية عديدة اليك بعضها :

– ١ –

اقتلوني يا ثقاتي ان في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي
ان عندي محوَ ذاتي من اجل المكرمات

وبقائي في صفاتي   من قبيح السيئات
فاقتلوني واحرقوني   بعظامي الفانيات
ثم مروا برفاتي ،   في القبور الدارسات ،
تجدوا سر حبيبي   في طوايا الباقيات !

– ٢ –

والله ما طلعت شمس ولا غربت   الا وحبك مقرون بانفاسي
ولا خلوت الى قوم احدثهم   الا وانت حديثي بين جلاسي
ولا ذكرتك محزوناً ولا فرحاً   الا وانت بقلبي بين وسواسي
ولا هممت بشرب الماء من عطش   الا رأيت خيالًا منك في الكاس
ولو قدرت على الاتيان جئتكم   سعياً على الوجه او مشياً على الراس !

– ٣ –

كانت لقلبي اهواء مفرّقة   فاستجمعت مذ رأتك العين اهوائي
تركت للناس دنياهم ودينهم   شغلًا بحبك ، يا ديني ودنيائي

الحب ، ما دام مكتوماً ، على خطر   وغاية الأمن ان تدنو من الحذرِ
واطيب الحب ما نمّ الحديث به   كالنار لا تأتي نفعاً وهي في الحجر !

– ٤ –

تفكّرت في الاديان جدّ تحققٍ   فالفيتها اصلًا له شُعَباً جمّاً[1]

الا أبلغ احبائي باني   ركبت البحر وانكسر السفينه
على دين الصليب يكون موتي   ولا البطحا اريد ولا المدينه !

---

١) ويروى عن الحلاج قوله : « الاديان كلها لله عزّ وجلّ ، شغلَ بكل دين طائفةً . . . الاديان هي القاب مختلفة واسامٍ متغايرة ، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف . »

— ٥ —

عجبت منك ومني　　يا منيــة المتمني
ادنيتني منك حتى　　ظننت انك اني
وغبتُ في الوجد حتى　　افنيتني بك عني

واي الارض تخلو منك حتى　　تعالوا يطلبونك في السماء
تراهم ينظرون اليك جهرا　　وهم لا يبصرون من العماء

يا بديعَ الــدلّ والغنجِ　　لك سلطــان على المهجِ
ان بيتاً انت ساكنــه　　غير محتــاجٍ الى السرجِ
وجهك المأمول حجّتنا　　يومَ يأتي الناس بالحججِ !

قد تصبرت وهل يصبر قلبي عن فؤادي
مازجت روحك روحي في دنوٍ وبعــاد
فــانا انت كما انك اني ومرادي

مزجت روحك في روحي كما　　تمزج الخمرة بالمــاء الزلال
فــاذا مسّك شيء مسّني　　فاذا انت انا في كل حال

انا من اهوى ومن اهوى انا　　نحن روحان حللنا بدنا
فاذا ابصرتني ابصرتــه　　واذا ابصرتَه ابصرتَنا

مثالك في عيني، وذكرك في فمي　　ومثواك في قلبي فاين تغيب ؟

التصوف الاسلامي

التصوف الاسلامي اعراض عن الارض في نشأته ، ومناجاة روحية تملى في اوجه ، وشعور تحجّر او ضلّ في عصوره المتأخرة ، وكأننا اذ نريك هذا التصوف في لمحة تاريخية ، لا نتعدى رسم الحدود بين هذه المراحل الثلاث ، واضعين امام عينيك معالم ، تهتدي بها في سيرك المتشعب الشاق .

١ — النشأة

قال ابن خلدون : « اصل الصوفية العكوف على العبادة ، والانقطاع الى الله ، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف.»

هو الدين الجديد بث في النفوس خوف القدير ، ورهبة العقاب ، ورغب الناس في عبادة الرحمان وهناء النعيم ، ودعا الخلق الى تسبيح ربهم ليل نهار ، فاذا نفوس تخاف عدل الله الصارم ، وتزهد في هذا العالم الفاني ، فتنصرف الى نفسها تحاسبها على اثامها وتنقيها من عيوبها ، وتنصرف الى ربها تناجيه في سكون الليالي ، وتتفهم وحيه في هدوء الوحدة ، حتى اذا ارضت نفسها من الصلاح ، وربها من التسبيح ، انصرفت الى غيرها تحاجهم في حبهم للدنيا ، وتذكرهم بنواهي الله ، وتدعوهم الى ما دعاها اليه ، شارحة لهم آيات الوحي ، مرددة على مسامعهم احاديث الاخرة ، ساكبة امامهم دموع التوبة . هذه كانت عبادة السلف في القرنين الاول والثاني ، شأن حسن البصري والحارث المحاسبي وغيرهما ، ينفردون ويصلون ويتأملون فيدعوهم الناس زهاداً وعباداً ونساكاً ، او هم يشرحون ويعظون ويبكون فيدعونهم قراء وقصاصاً وبكائين.

وهو ظمأ القلب البشري قلما رواه مخلوق.

يجيء الانسان هذا العالم ابناً من بني البشر ، فيه الى السعادة حنين الليل الى النور ، وله في اللذة نهم الغناء الى الرقص . ويسير في هذا العالم ، تسحر الالوان عينيه ، وتموج لبسمته الدنيا ، فيتيه كالنشوان ، ويرقص ، ويعربد . ثم يطغى عليـه الغرور ، فيبسط ذراعيه في الفضاء ليضم الدنيا الى صدره ، شأنه شأن الطفل الذي يمد يده ليطال القمر . ويتمادى به الوهم فيخال الدنيا بين ذراعيه ، ويخاله ملك الدنيا ، فيبلغ ثمله اقصاه ، ويغيب في حلم رحب ، تضيق به الدنيا الرحبة ، ويضيق به خياله ، وتضيق به قواه.

ولكن ما اوهى احلام الدنيا ، وما اقسى يقظة المخدوع . هي خيبة او ملل ، واذا احلام هذا المفتون تراب منثور يتذرى شحوباً في لونه ، ومرارة على شفتيه ، واذا هو دهش مذعور كضائع في خربة ، لا يرى حوله سوى اشلاء ماضيه ، وبقايا اماله ، واذا به يائس ناقم ، يلعن التراب الذي جبل منه ، والارض التي حبلت به ، ويضج قلبه بالحقد والبغضاء ضجة كل قلب مخدوع .

لقد غرّته الدنيا ، وصرفته عن عالم الحق ، فانقاد لها جهلًا ، واحبها اثماً . ألا طالما انذره صوت داخلي بسوء مصيره ، ودعاه الله الى سماع نجواه ، وورود مناهله ، فاعرض ولم يعِ . اما الان وقـد تبدّدت الاوهام ، وتمزّقت الستور ، فسيعود هذا المغرور من سفره الارضي العقيم ، ويعد سفرًا جديدًا الى عالم جديد.

انه سينصرف الى قلبه فيعريه من كل ميل ، وكل ذكرى ، وكل اثر ، ويحرره من حبائل الشهوات الارضية ، فينتزعها منه انتزاعاً ، ويستأصلها استئصالًا ، وان آلمه الانتزاع ، وادماه الاستئصال. . . اما عيناه فلن تنهلا بعدُ النور الخداع ، بل سيغمضها عن هذا العالم الخارجي ،

ويعود بهما الى قلبه يراقبه ويحاسبه ، يشذبه ويصفيه ، الى ان يعود كما خرج من يد الله ، ليس فيه غير الشوق الى وجهه.

وكان غناء وكان دعاء ، واذا انسان جديد يستيقظ فيه ، وروح جديدة تدب في عروقه.

الا انظره ! كل اشواقه الارضية قد ماتت . لقد زهد في المال ، وآثر الفقر والصوم والجوع ، وتوكّل على ربه في تدبير شأنه . وقد زهد في اللباس ، فطرح الزينة ، وفضّل الخشن ، واكتسى الصوف رداء عادياً . وقد زهد في الناس ، فاعتزل الناس ، لا يرجو منهم عوناً ، ولا فيهم عزاء ، وربما زهد في الزوج والولد ، وآثر التبتل[1] ليتفرغ الى نفسه والى ربه . قد يطلب منه هذا التبتل جهدًا ، وقد يجرّه الجهد الى التشويش والكآبة ، ولكنه يفضل جهدًا ينقيه ، وكآبة يستقر عليها . . حتى اذا تعذر الاستقرار خرج سائحاً تائهاً ، يقاسي حر العناصر وبردها ، ويقاسي جوع السفر وعناءه ، ويجهد هذا الجسد الى ان يعريه من منى الدنيا ويعده للسفر الى الله ، منية القلوب والاجساد.

●

هو الدين بعث الخوف في القلوب ، او الدنيا لم تملأ فراغها ، فانصرفت الى ربها عابدة زاهدة ، ترجو منه غفراناً واليه بلوغاً.

تلك كانت اول خطوة خطاها الصوفي نحو كماله ، فيها من الخيبة والرهبة ، وفيها من الزهد والتوبة ، وفيها صبوة بعيدة الى الجمال الباقي ، الى عناق الالوهة في ذروة الفناء..

١) التبتل دخيل مسيحي . روى ابن الجوزي الحديث التالي : دخل على النبي رجل يقال له عكاف ، فقال له النبي : يا عكاف ، هل لك زوجة ؟ قال : لا . قال : ولا جارية ؟ قال : لا . قال : وانت موسر بخير ؟ قال : وانا موسر . قال : انت من اخوان الشياطين ، لو كنت من النصارى كنت من رهبانهم . ان سنتنا النكاح.

٣ — الذروة

ولكن اين الله ، وكيف السبيل اليه ؟

ان اهل الشرع قد وضعوه بعيداً ، وراء الغيوم الكثيفة ، ووراء النجوم ، رباً لا يداني وروحاً لا يحس . اما الطريق اليه فقد حددوها بشرائع ، ونظموها بقوانين ، كأن النفس لم تتحرر من قيودها الارضية الا لتقع في قيود جديدة.

لا ! ان الصوفي لن يتقيد ثانية بقيود البشر ، ولن يرضى الا عن قيد الخلق يضمه الى ربه في وحدة الوجود الشامل ، وعن قيد الحب يجمعهما معاً في دهشة القلب الريان.

ولهذا لم يعد الصوفي يفتش عن الله في السماء ، او يسير اليه بالشرائع والقوانين ، بل عاد الى قلبه يضرم فيه الحب ، ليرى على نوره وجه ربه فيه.

لم يعد قرآنه وضوءا وتشريعاً ، او ترغيباً بثمار الخلد وحوره ، بل اصبح حديث ربه اليه ، وكلامه معه ، يردده بلسانه وكأنَّ الله يناجيه.

تأمله جالِساً في خلوة ، وقد غابت الدنيا عن قلبه وعينيه ، يفتح كتابه ويقرأ : « يا ايها الذين آمنوا ، اذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكرة واصيلاً . » (٣٣ : ٤٠ — ٤١) . ثم انظره وقد طوى كتابه ، وغضّ بصره ، وسوّى جلوسه ، وبدأ يذكر ويسبح . هو اسم الله او بعض صفاته ، يردده لسانه ما امهله الكلل ، فتموج شفتاه موجات كلماته ، وتخفق انفاسه خفقات الهائمين ، ويتمايل جسده ورأسه على همس صوته وانفاسه ، فكأنه معزف استوت اوتاره ، وتلاءم نغمه ، وكانه لم يأتِ الوجود الا ليغني اغنية الحب لباري الوجود . . . يا لطيف . . . يا رحيم . . . سبحان الله . . . لا اله الا الله . . . لا اله

الا هو ... يردد احدى هذه الكلمات عشرات المرات ، ومئات المرات ، ويقف اخيرًا على اسم الله يردده وحده ، ويتمايل برأسه الى اليمين ، ثم الى اليسار ، ثم نحو قلبه : اللهَ ، اللهِ ، اللهُ ... اللهَ ، اللهِ ، اللهُ ... لسانه يتكلم ، ورأسه يتمايل ، وقلبه يتفهم ، وكله بالله مخمور :

مثالك في عيني ، وذكرك في فمي ، ومثواك في قلبي ، فأين تغيب ؟

وقد لا يكون هذا الصوفي وحده ، بل في صحبة من امثاله او تابعيه ، فيتخذ « الذكر » شكل جوق ، اوتاره قلوب خفاقة ، ونغماته اصوات تتراجع وتمتد ، وتستطيل ، اما لحنه فواحد هو حب الله ، والسكر بالله : يا لطيف ، يا لطيف ، يا لطيف ...

وقد تمل هذه القلوب عبارات القرآن ، فتستبيح لنفسها عبارات الغزل ، تنتقل بها من الحب البشري الى الحب الالهي ، وتستبيح لاصواتها الغناء بهذا الشعر الغزلي ، فيعلو في نشوة الذكر صوت رخم بعيد المدى :

انا من أَهوى ومن أهوى انا   نحن روحان حللنا بدنا

ويعود الصوت متاوجًا ، متثاقلًا ، ولهان ، — وقد ترجعه الضلوع اصداء حب قديم — فاذا الاعطاف تترنح ثم تضطرب ، واذا الايدي تتهادى ثم تصفق ، واذا الاوصال اوراق صفعها الريح ، واذا الاجساد تنهض مائسة متخطرة ، ثم تسرع هازجة راقصة ، ثم تدور في الحلقة ذهاباً واياباً ، وتغمر الجميع موجة من الطرب طالما جنى عليها الزهد ، ويستسلم الجميع لثورة من المادة طالما ذللها الروح ، ويبلغ « الوجد » اقصاه ... وصوت القوال يراجع للمرة العشرين بصوته الرخم الولهان :

انا من اهوى ومن اهوى انا !

ويظل الصوفي يصفق ويرقص ويدور ، والعرق يتصبب من جبينه ولحيته ، وحرارة الحركة تزيد حرارة القلب ، والطرب يستخف الجسد

ويفقد الهدى ، واذا به ينزع ثيابه ، ثم يعبث بها رمياً وتمزيقاً ، واذا بالكل يقتدون به لباقة وصداقة ، واذا اجسام عارية تدور وتدور وتدور ، والقوال يكمل بيته :

نحن روحان حللنا بدنا .

تهب الزوبعة في الصحراء ، فتثير الغبار ، وتسير به ، وترتفع وتدور وتدور ، ولكنها في اقوى ثورتها تصبو الى الجمود الذي خرجت منه ، ولا تلبث ان تنحل فجأة وتندثر على الحضيض هباء منثوراً . هكذا تلك الاجسام النشوى لا تلبث ان تكلّ ، وتلك الرؤوس ان يستبد بها الدوار ، فاذا بالعاصفة تلين ثم تهدأ ، واذا بالاوصال تتماهل ثم تقف ، واذا بالاجساد تخرّ على الحضيض الذي نهضت منه ، تريد راحة لقلبها الخفوق ، وانفاسها المتقطعة ، وعروقها النباضة.

ها السكون يعود رويداً رويداً الى الحلقة ، تقطعه من آنٍ الى آن زفرات وشهقات ، وتلونه بين الحين والحين تمتمات لا واعية : اللهَ ، اللهِ ، اللهُ . . . انا من اهوى ومن أهوى انا . . . ثم يعود الهدى الى هذه الرؤوس ، ويقف الاضطراب ، وتخمد النشوة ، ويحس الصوفي بشيء من البرد فيبدأ يفتش عن ثيابه يلبسها ، ويعود ثانية الى عالمه الارضي الذي خرج منه لمحة.

انها قد كانت نشوة لذيذة ، لم يشعر بها يوماً خلال مجاهداته الماضية ، وتأملاته الطويلة ، نشوة خارقة لم تكن لتخطر على قلبه ، وها هي قد غابت تاركة حسرة الفوات.[1]

---

١) لا تزال حلقات الذكر امراً مألوفاً لدى الطرق الصوفية ، وقد وصف لنا الريحاني ، في كتابه ملوك العرب ، احدى هذه الحلقات قال :

« توفي . . . يومئذ شيخ الطريقة المرغنية ، فاشتركت الطرق كلها في حلقة ذكر من اجله ضمت اربعمئة من المصلين . . .

ما هذه الحالة ؟ اليست هذا القرب من الله الذي يغيب عنده كل محسوس وهذا الدنو من الله الذي تهوي عنده الحواجز ، وحلول الله في القلب الذي انصرف بكليته اليه ؟

الم يكن يردد في نشوته « انا من اهوى ومن اهوى انا » ، أو لم يكن على ثقة مما يقول ؟

ولماذا لا يكون رأى نور الله ؟ ولا يكون حل الله فيه ؟ اليس كل وجود من الله ، وكل موجود قائماً بالله ، يعمل فيه ما يشاء ؟ الم يصعد النبي في معراجه الى السماء ، الى المسجد الاقصى ؟ بلى ! بلى !..

وقفت الحلقة اربعة صفوف الواحد وراء الاخر ، ووقف الشيخ احد ابناء الفقيد في وسطها فحركها باسم الله . بدأ بصوت هادئ واشارة لطيفة ، بدأ بـ « لا اله الا الله » . فمالت الحلقات الى الامام ، ومالت الى الوراء ، وراحت تكررها وتردد الشهادة . وكان صوت الاربعمائة مصلي وكأنه صوت واحد ، وحركة الاربعمائة مجلي وكأنها حركة واحدة ، يتدرجان سرعة وهياجاً ، عملاً بلهجة الشيخ وباشارة يمناه ، وهو يجول في الحلقة مستحثاً محرضاً .

الا الله ! وضرب كفاً على كف ، فرددت الحلقة : الا الله ! بسرعة لمح البصر ، ثم امست كانها تصيح : لله لله لله ، وسكتت فجأة كمن اغمي عليه . ثم عادت تدريجاً الى الميزان الاول في الصوت والحركة : لا اله الا الله .

وجلس الشيخ ، فقام اخر يثب وثباً ويقول : حيُّمْ قيُّمْ (اي حيّ قيّوم) . شرعنا نتقدم هياجاً . دخلنا في دور الزبد والرغاء . حيُّم قيُّم ! وتحركت الحلقة حركة شديدة كأنها تدق رأسها في الارض ، ثم نطحاً في الجو . واستمرت في حيّم قيّم نصف ساعة ، والشيخ يثب في وسطها ويخلج ، ويصفق كفاً على كف كل مرة ينقلها من درجة في السرعة الى اخرى . وما كادت تنتهي حتى بدأ يسقط صريعاً من فاز بنعمة في « الحال » .

ثم نهض ولد لا يتجاوز الثانية عشرة ، وهو اصغر اولاد الفقيد ، فبدأ حيث

لقد رأى الصوفي ربه ، وحل ربه فيه ، فلا سبيل الى الريب ! واي غرابة اذاً ان يكون للبسطامي معراج كمعراج النبي ، وان يحل الله فيه فيقول « سبحاني » ، وان يحل في الحلاج فيهتف « انا الحق » او يتغنى في وجده :

يا نسيم الريح قولي للرشا لم يزدني الورد الا عطشا
لي حبيب حبه وسط الحشا لو يشا يمشي على خدي مشى
روحه روحي وروحي روحه ان يشا شئت وان شئت يشا

ألا ارتب ما شئت في صحة دعوى الحلاج ، ولكنك لن ترتاب في اخلاص رجل تسجنه السلطة العباسيه ثماني سنوات فلا يلين ، ويحاكمونه سبعة اشهر فلا يرتدع ، ويصدر الامر بقتله فيقاسي الجلد ، وقطع اليدين والرجلين ، وصلباً على جذع.

انتهى اخوه . وكان يتلوى كالسكران ، ويرقص تارة ويثب طوراً كالمجنون . مثّل الولد دوره تمثيلًا ادهش حتى الذين الفوا الحلقات ومدهشاتها ، واضحكهم كذلك . كهربَ الولد الحلقة . اضرم فيها النار . قبض على ما تبقى من رشدها ، ورماه خارجاً . صاح بها فرددت الصيحات ، ولم نعد نفهم ما يراد . الا انها اشبه بالانين ، كأن الاربعمائة رجل اصيبوا بألم شديد فانّوا انة واحدة .

وبدأت تظهر كرامات الشيخ . هوذا عبد امسى جماداً ، فرفعه اثنان فوق رؤوسهم واخرجوه . وذاك ، وقد خرج من الحلقة فراح يدق رأسه بالحائط ، فسقط صريعاً مغمى عليه . وهاك من يبغي الاجتماع بالله بواسطة عمود من اعمدة المسجد ، فامسكه رفيقاه ، فتفلت منهما وضربها ، ووثب وثبة هائلة ، كان العمود ورأسه خاتمتها المفجعة . حملوه مضرجاً بدمه الى خارج المسجد .

بدأت تظهر كرامات الشيخ الفقيد . سقط امام الولد الزعيم ، في وسط الحلقة ، شيخ لحيته بيضاء طويلة ، والزبد يسيل من فيه عليها ، فوثب فوقه ، ولم يأبه له . وهذا اخر يخلع ثيابه :

والحلاج في نظرنا اكمل مثال على ما وصل اليه الثمل الروحي ، وادركه التصوف الاسلامي ، في القرن الثالث الهجري .

لقد تدرج العابد من التوبة عن الخطايا والزهد في العالم ، الى ذكر الله وصفاته تفكرًا وتسبيحاً ، فالغناء بآيات الوحي واشعار الحب يهاديه الوجد الراقص ، فالغيبوبة الكبرى والفناء في الالوهة ، مع ما يرافق ذلك من شطح[1] متطرف ، ويتبعه من اضطهاد منتظر .

هو القلب البشري بعد ان تفرغ في القرنين الاولين من حب الدنيا ، وثورات الشهوة ، وثب في القرن الثالث الى الملأ الاعلى يبغي فيه حب الهه ، ووصال باريه ، ناعياً على البشر غفلتهم ، مستفزًّا هممهم . وعجز البشر عن اللحاق به فكفّروه ، واشخصوه امام محاكمهم تطرحه في سجونهم ، او ترفعه على صلبانهم ، لينتقموا من هذا الاحمق ، الهازئ بحكمتهم ، الثائر على شرائعهم .

٣ – الانحطاط

على ان الاضطهاد لم يمت يوماً نزعة روحية ، وصلب الحلّاج ما اخاف او ردع .

انما الحلّاج كان ذروة ، وبعد كل ذروة واد .

« خلعتُ عِذاري واعتذاريَ لابسَ الـ خلاعةِ مسرورًا بخلعي وخِلعتي »

رمى بعمامته وبجبته وبدثاره الى الارض . فاوقفوه عند هذا الحد ، واخرجوه في شعاره من الحضرة الروحانية . استجرنا من ذا المشهد بروح الشيخ الطاهرة : يا لطيفة ، يا شريفة ، يا كليمة ابي حنيفة ، يا مسكتة العباد ، ومنطقة الجماد ، يا ربة الحال ، وسراج الترحال ، قفي ، والطفي ، لا تقتلينا بالكرامات ، لا تسكرينا بالشعوذات ، ولا تؤاخذي شيوخ الطرق والحلقات ، امين ، امين .»

١) الشطح كلام يعني ان الصوفي والله واحد ، من مثل « انا الحق ».

ان الشعور الروحي ، اساس كل تصوف ، يبدأ صاخباً جامحاً ، ثم تخفف من اندفاعه الايام ، ويمد اليه العقل يده ، فيدبّ اليه الهمود ، ويدبّ التحجر ، ويعقب الانحطاط .

وان العقل تناول التصوف باسم المنطق ، فاذا اكثر الصوفيين يتخذون الحلول اصلاً ، ويتطرقون منه الى اغرب النتائج :

ان الصوفي ، وقد اتحد بربه ، لفي حل من الشريعة ، من الاوامر والنواهي ، يكفيه الحب ديناً ، والسعي الى لقاء الله فرضاً . وما دعوى الفقهاء ، ان اباح الله لاوليائه ما يحرمه على الجماعات ؟

وان الله قد يصطفي اجساماً يسكنها ، وحسناً يتجلّى فيه ، فلمَ لا يكون حب الوجه الحسن حبّاً لله[1] ، والنظر الى المرد سبيلاً لاثارة الوجد بريئاً ؟

وان الالهام الصوفي لعلم ربّاني ، يغدقه الله على اوليائه حين يفنون فيه ، وهو يفوق كل حكمة الفلاسفة ، وكل علم المتكلمين ، فلمَ التعلم ، ولمَ عناء العقل ؟

وهكذا افسد العقل على هؤلاء الصوفيين الطريقة ، بل قل افسدتها الاهواء ، التي تطغى على العقل وتغويه ، فاذا سلوك التصوف طلبٌ للذة او استباحة هوى .

كان الوجد وسيلة يراد بها الاتصال بالله ، فاصبح لذة تطلب لذاتها ، واصبح السماع والرقص ضرباً من ضروب اللهو[2] ! قال ابن الجوزي

---

١) قال ابن طاهر ، وكان يذهب مذهب الاباحة ، ويجيز النظر الى المرد : رأيت جارية في مصر مليحة ، صلّى الله عليها وسلم ! فقيل له : تصلي عليها ؟ فقال : صلّى الله عليها ، وعلى كل مليح ! (عن ابن الجوزي)

٢) قال ابو العلاء :

(† ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠) : « التصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي ثم ترخص المنتسبون اليها بالسماع والرقص ، فمال اليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد ، ومال اليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب . » وهكذا اصبحت الحلقات الصوفية مهازل روحية كثر فيها تمزيق الثياب والزعيق والغشيان ، واصبح الصوفي ، على قول الشاعر :

يئن اذا اومضت رنّة ويزأر منها زئير الاسودِ

وكان تبتل بعضهم احتقارًا للذات الجسد ، وتفرغًا للتعبد ، فاذا به ، على رأي ابن الجوزي ، نوع من « تلبيس ابليس » جرّهم به الى صحبة الاحداث من المريدين ، فالميل اليهم ، مع ما يتبع ذلك من جناية على الطبيعة والاخلاق معًا.

وكان الصوفي يرغب عن الجاه ، ويطرح الكبرياء ، لانهما الى الاثم دافع وطريق ، فاذا ببعضهم يرون في ارتكاب الاثام وسيلة الى طرح الجاه ![1]

ثم كان الاقبال على التصوف ، وكانت الجمعيات الصوفية ، وكان ما يتبع اقبال الجماعات على الكمال من تعثر وتدهور[2].

ارى جيل التصوف شر جيلٍ فقل لهمُ – واهون بالحلول !–
أقال الله حين عبدتموه كلوا اكل البهائم وارقصوا لي !

١) قال ابن الجوزي : « وفي الصوفية قوم يسمّون الملامتية اقتحموا الذنوب وقالوا : مقصودنا ان نسقط من اعين الناس فنسلم من الجاه ».

٢) منذ القرن الرابع الهجري بدأ بعض المتصوفين يعيشون في جماعة . وفي القرن السادس تكونت الجمعيات الكبرى وانتشرت . وكانت هذه الجمعيات تتميز بعقائد وطقوس وانظمة ، انما تشترك جميعها في وجود شيخ على رأسها يقبل الاحداث المريدين ، ويرشد الجميع في سلوك الطريقة ، وطلب الكمال .

وهكذا انحط التصوف ، لان الشعور الروحي الذي غذاه قد جفّ مع الايام ، ولان العقل حاد به عن مجراه الاصيل ودفع به الى التحجّر ، ولأن اكثر من اقبلوا عليه ما كانوا اهلاً ليسلكوه.

ولعل ابن الفارض خير مثال على صوفي انتابه من عوامل الانحطاط ما انتاب معاصريه ، وسمت به روح اغنى من ارواحهم ، فظل مضطرباً ، قلقاً ، يغالي في التواجد ويصون النفس ، يحب الجمال ويمارس الزهد ، يقول الحلول ولا يصبح الله ، تارة تختلط لديه الارض والسماء وطوراً تفترقان ، مما شوقنا الى درسه ، واغرانا بتحليل نفسيته وتفهم روحه .

ابن الفارض

٥٧٦ - ٦٣٢ هـ = ١١٨٠ — ١٢٣٤

دراسة - شعر مختار
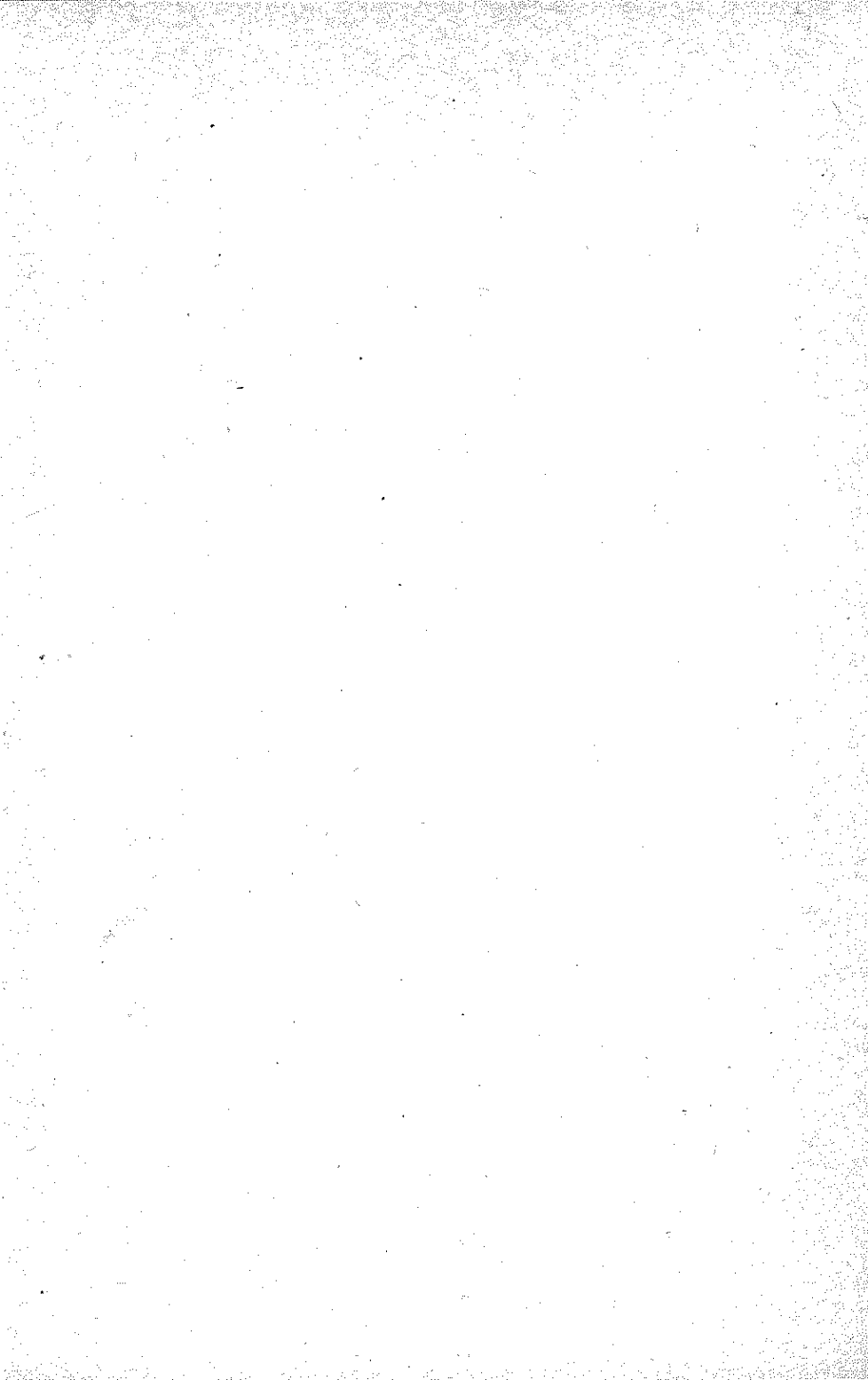
عمر بن الفارض

ترجمته

لحفيده

« قال الفقير المعترف بذنبه ... علي سبط الشيخ ابن الفارض ... اخبرني سيدي ولده ... قال :

« كان الشيخ ، رضي الله عنه ، معتدل القامة ، وجهه جميل حسن مشرب بحمرة ظاهرة ، واذا استمع وتواجد وغلب عليه الحال ، يزداد وجهه جمالًا ونورًا ويتحدر العرق من سائر جسده حتى يسيل تحت قدميه على الارض ، ولم ارَ في العرب ولا في العجم مثل حسن شكله ، وانا اشبه الناس به في الصورة . وكان عليه نور وخفر ، وجلالة وهيبة ؛ ومن فهم معاني كلامه دلته معرفته على مقامه ، ومن اختصه الله بمحبته وانسه يعرف المحب بين اهل المحبة من جنسه ، وقد جعل الله المحبين خزائن اسراره المصونة ومعادن قوله تعالى « يحبهم ويحبونه » . وكان اذا مشى في المدينة ، تزدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء ، ويقصدون تقبيل يده فلا يمكّن احدًا من ذلك ، بل يصافحه . وكانت ثيابه حسنة ، ورائحته طيبة ، وكان اذا حضر في مجلس ، يظهر على ذلك المجلس سكون وهيبة ، وسكينة ووقار . ورأيت جماعة من مشايخ الفقهاء والفقراء ، واكابر الدولة من الامراء والوزراء والقضاة ورؤساء الناس يحضرون مجلسه ، وهم في غاية ما يكون من الادب معه ، والاتضاع له ، واذا خاطبوه فكأنما يخاطبون ملكًا عظيمًا . وكان ينفق على من يرد عليه نفقة متسعة ويعطي من يده عطاء جزيلًا . ولم يكن يتسبب في تحصيل شيء من الدنيا ، ولا يقبل من احد شيئاً ؛ وبعث إليه السلطان محمد الكامل الف دينار فردها اليه ، وسأله ان

يجهز له ضريحاً عند قبر امه بتربة الامام الشافعي فلم ينعم له بذلك ، ثم استأذنه ان يبني له مزارًا مختصاً به فلم يأذن له بذلك ...

« سمعتُ الشيخ — ابن الفارض — يقول : كنت في اول تجريدي ، استأذن والدي ، واطلع الى وادي المستضعَفين ، بالجبل الثاني من المقطم ، وآوي فيه ، واقيم في هذه السياحة ليلًا ونهارًا ، ثم اعود الى والدي لاجل بره ، ومراعاة قلبه . وكان والدي يومئذ خليفة الُحكم للعزيز بالقاهرة ومصر المحروستين ، وكان من اكابر اهل العلم والعمل فيجد سرورًا برجوعي اليه ، ويلزمني بالجلوس معه في مجالس الحكم ومدارس العلم ، ثم اشتاق الى التجريد ، فاستأذنه واعود الى السياحة . وما برحت افعل ذلك مرة بعد مرة ، الى ان سئل والدي ان يكون قاضي القضاة فامتنع ، ونزل عن الحكم ، واعتزل الناس ، وانقطع الى الله تعالى بقاعة الخطابة في الازهر الى ان توفي ، فعاودت التجريد والسياحة ، وسلوك طريق الحقيقة فلم يفتح علي بشيء . فحضرت يوماً من السياحة الى القاهرة ، ودخلت المدرسة السيوفية ، فوجدت رجلًا شيخاً بقالًا على باب المدرسة ، يتوضأ وضوءًا غير مرتب . . . فقلت له يا شيخ ، انت في هذا السن ، على باب المدرسة ، بين فقهاء المسلمين ، وتتوضأ وضوءًا خارجاً عن الترتيب الشرعي ؟ فنظر اليَّ وقال : يا عمر ، انت ما يفتح عليك في مصر ، وانما يفتح عليك بالحجاز ، في مكة شرفها الله تعالى ، فاقصدها فقد آن لك وقت الفتح . فعلمت ان الرجل من اولياء الله تعالى ، وانه يتستر بالمعيشة ، واظهار الجهل بلا ترتيب الوضوء ، فجلست بين يديه ، وقلت له : يا سيدي ، اين انا واين مكة ، ولا اجد ركباً ولا رفقة في غير اشهر الحج ؟ فنظر اليَّ واشار بيده وقال : هذه مكة امامك . فنظرت معه ، فرأيت مكة شرفها الله تعالى ، فتركته وطلبتها فلم تبرح امامي الى ان دخلتها في ذلك الوقت ، وجاءني الفتح

حين دخلتها ، فترادف ولم ينقطع . . . ثم شرعت في السياحة في اودية مكة وجبالهـا ، وكنت استأنس بالوحش . . . واقمت بوادٍ كان بينه وبين مكة عشرة ايام للراكب المجد ، وكنت آتي منه كل يوم وليلة ، واصلي في الحرم الشريف الصلوات الخمس ، ومعي سبع عظيم الخلقة يصحبني في ذهابي وايابي ، وينخ لي كما ينخ الجمل ، ويقول يا سيدي اركب ، فما ركبته قط . . . ثم بعد خمس عشرة سنة ، سمعت الشيخ البقال يناديني : يا عمر ، تعالَ الى القاهرة احضر وفاتي ، وصلِّ عليَّ ، فاتيته مسرعاً فوجدته قد احتضر ، فسلمت عليه وسلم علي ، وناولني دنانير ذهب ، وقال جهزني بهذه ، وافعل كذا وكذا . . . وتوفي رحمه الله ، فجهزته كما اشار . . . (1)

« وقال ولده — محمد ولد ابن الفارض — رحمه الله تعالى : رأيت الشيخ ، رضي الله عنه ، نائماً مستلقياً على ظهره ، وهو يقول : « صدقتَ يا رسول الله ، صدقتَ يا رسول الله ! » ، رافعاً صوته ، مشيرًا باصبعيه اليمنى واليسرى اليه ، واستيقظ من نومه ، وهو يقول كذلك ، ويشير باصبعيه كما كان يفعل وهو نائم . فاخبرته بما رأيته وسمعته منه ، وسألته عن سبب ذلك ، فقال : يا ولدي ، رأيت رسول الله في المنام ، وقال لي يا عمر لمن تنتسب ؟ فقلت يا رسول الله ، انتسب الى بني سعد ، قبيلة حليمة السعدية مرضعتك . فقال لا ، بل انت مني ، ونسبك متصل بي . فقلت يا رسول الله ، اني احفظ نسبي عن ابي وجدي الى بني سعد . فقال لا ، مادًّا بها صوته ، بل انت مني ، ونسبك متصل بي . فقلت صدقت يا رسول الله ، مكررًا لذلك مشيرًا باصبعيَّ كما رأيت وسمعت . . .

---

(1) مات ابن الفارض بعد عودته من مكة باربع سنوات ، فيكون سافر اليها في نحو السابعة والثلاثين من عمره ، وقد سافر وعاد باشارة من استاذه البقال .

وقال ولده ، رحمه الله : سمعت الشيخ ، رضي الله عنه ، يقول : رأيت رسول الله في المنام ، وقال لي : يا عمر ما سميت قصيدتك ؟ فقلت : يا رسول الله ، سميتها «لوائح الجَنان وروائح الجِنان» . فقال : لا ، بل سمها «نظم السلوك» فسميتها بذلك . وقال : حضر في مجلس الشيخ رضي الله عنه ، رجل . . . واستأذنه في شرح القصيدة نظم السلوك ، فقال له : في كم مجلد تشرحها ؟ فقال : في مجلدين . فتبسم الشيخ وقال : لو شئت لشرحت كل بيت منها في مجلدين.

قال ولده رحمه الله : كان الشيخ في غالب اوقاته لا يزال دهشاً ، وبصره شاخصاً ، لا يسمع من يكلمه ولا يراه ، فتارة يكون واقفاً ، وتارةً يكون قاعدًا ، وتارةً يكون مضطجعاً الى جنبه ، وتارة يكون مستلقياً على ظهره مسجى كالميت ، ويمر عليه عشرة ايام متواصلة ، واقل من ذلك واكثر ، وهو على هذه الحالة ولا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم ولا يتحرك ، فهو كما قيل :

ترى المحبين صرعى في ديارهم   كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

ثم يستفيق ، وينبعث من هذه الغيبة ، ويكون اول كلامه انه يملي من القصيدة نظم السلوك ما فتح الله عليه . . . منها من الثلاثين والاربعين والخمسين بيتاً . . .[1]

وقال لي ولده : سمعت الشيخ يقول : حصلت مني هفوة ، فوجدت مؤاخذة شديدة في باطني بسببها ، وانحصرت باطناً وظاهرًا حتى كادت روحي تخرج من جسدي ، فخرجت هائماً كالهارب من امرٍ عظيمٍ فَعَله ، وهو مطالب به ، فطلعت الجبل المقطم ، وقصدت مواطن سياحتي وانا

---

١) نظم ابن الفارض بعض شعره في الحجاز ، وبعضه في مصر ، الا انه نسق ديوانه واملاه في مصر ، بعد عودته من الحجاز.

ابكي واستغيث واستغفر ، فلم ينفرج بالي ، وقصدت مدينة مصر ، ودخلت جامع عمرو بن العاص ، ووقفت في صحن الجامع خائفاً مذعورًا ، وجددت البكاء والتضرع والاستغفار فلم ينفرج ما بي ، فغلب علي حال مزعج لم اجد مثله قط ، فصرخت وقلت :

من ذا الذي ما ساء قط　　ومن له الحسنى فقط

قال فسمعت قائلًا يقول بين السماء والارض اسمع صوته ولا ارى شخصه :

محمد الهادي الذي　　عليه جبريل هبط

وقال لي ولده : رأيت الشيخ نهض ، ورقص طويلًا ، وتواجد وجدًا عظيماً ، وتحدر منه عرق كثير حتى سال تحت قدميه ، وخرّ الى الارض واضطرب اضطراباً عظيماً ، ولم يكن عنده غيري ، ثم سكن حاله ، وسجد لله تعالى ، فسألته عن سبب ذلك فقال : يا ولدي ، فتح الله علي بمعنى في بيت لم يفتح علي بمثله ، وهو :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه ،　　يفنى الزمان وفيه ما لم يوصفِ

وحكى لي ولده قال : كان الشيخ ماشياً في السوق بالقاهرة ، فمر على جماعة من الحرسية يضربون بالناقوس ، ويغنون بهذين البيتين وهما :

مولاي ، سَهرنا نبتغي منك وصال　　مولاي فلم تسمح فنمنا بخيال

مولاي فلم يطرق ، فلا شك بان　　ما نحن اذًا عندك مولاي ببال

فلما سمعهم الشيخ صرخ صرخة عظيمة ، ورقص رقصاً كثيرًا في وسط السوق ، ورقص جماعة كثيرة من المارين في الطريق ، حتى صارت جولة واسماع عظيم ، وتواجد الناس الى ان سقط اكثرهم الى الارض ، والحراس يكررون ذلك ، وخلع الشيخ كل ما كان عليه من الثياب ، ورمى بها اليهم ، وخلع الناس معه ثيابهم ، وحمل بين الناس الى الجامع الازهر ، وهو عريان مكشوف الرأس ، وفي وسطه لباسه ، واقام في

هذه السكرة اياماً ، ملقى على ظهره مسجى كالميت ، فلما افاق جاء الحراس اليه ومعهم ثيابه ، فوضعوها بين يديه فلم يأخذهـا . وبذل الناس لهم فيها ثمناً كثيرًا فمنهم من باع ، ومنهم من امتنع من بيع نصيبه وخلاه عنده تبركاً به.

وحكى لي ايضاً قال : كان الشيخ ماشياً في الشارع الاعظم... وانا معه ، واذا بنائحة تنوح وتندب على ميتة في طبقة ، والنساء يجاوبنها وهي تقول :

ستّي متي متي حقّاً   اي والله حقّاً حقّاً

فلما سمعها الشيخ صرخ صرخة عظيمة ، وخر مغشياً عليه ، فلما افاق صار يقول ويردد مرارًا :

نفسي متي متي حقّاً   اي والله حقّاً حقّاً

وحكى لي ايضاً قال : كان الشيخ جالساً في الجامع الازهر ، على باب قاعة الخطابة ، وعنده جماعة من الفقراء والامراء وجماعة من مشايخ الاعجام المجاورين بالجامع وغيرهم ، وكلما ذكروا حالًا من احوال الدنيا مثل الطشت خانه والفرشخانه وغير ذلك ، يقول: هذا من زخم العجم. فبينما هم يتفاوضون في ذلك ، ويفخمون زخم العجم ، اذ المؤذنون رفعوا اصواتهم بالاذان جملة واحدة فقال الشيخ : وهذا زخم العرب ! وتواجد وصرخ كل من كان حاضرًا حتى صار لهم ضجة عظيمة ...

وحكى لي ولده قال : كان للشيخ اربعينيات[1] متواصلة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام . وفي بعض ايام اربعينية اشتهت نفسه عليه هريسة ،

---

١) قال ابن الجوزي حاكياً عن الصوفية : « قد اخرج لهم بعض المتأخرين الاربعينية : يبقى احدهم اربعين يوماً لا يأكل الخبز ، ولكنه يشرب الزيوتات ويأكل الفواكه الكثيرة اللذيذة . »

وكان في آخر ايام الاربعين ، فقال : يا نفس ، اما تصبرين بقية هذا اليوم وتفطرين على الهريسة ؟ فأبت ، وقالت : لا بد من الهريسة في هذا الوقت ! قال الشيخ : فاشتريت الهريسة ، وجئت الى قبة . . . ورفعت اول لقمة الى فمي ، فانشق جدار القبة المذكورة ، وخرج منها شاب جميل الوجه ، حسن الهيئة ، ابيض الثياب ، عطر الرائحة وقال : تف عليك ! فقلت : نعم ، ان اكلتها ! فرميت تلك اللقمة من يدي في الحال ، قبل ان تصل الى فمي ، وتركت الهريسة ، وخرجت من الحرم الى السياحة ، وأدّبتُ نفسي بزيادة عشرة ايام في المواصلة على الاربعين لتتمة خمسين يوماً . . .

وحكى لي قال : كان الشيخ يقيم في شهر رمضان بالحرم لا يخرج الى السياحة ، ويطوى ويحيي ليله . . . فشد والدي في وسطه مئزرًا ، وكذلك المجاورون بالحرم ، من اول شهر رمضان ، وهم في طلب ليلة القدر[1] ، فتارة يطوفون ، وتارة يصلّون ، وانا معهم ، فخرجت ليلًا من الحرم في العشر الاواخر لازيل حقنة بظاهر الحرم ، فرأيت البيت والحرم ، ودور مكة وجبالها ساجدين لله تعالى ، ورأيت انوارًا عظيمة بين السماء والارض ، فوجدت هيبة ورعباً شديدًا ، وجئت الى والدي مهرولًا ، فاخبرته بذلك ، فصرخ وقال للمجاورين الواقفين في طلب ليلة القدر : هذا ولدي خرج يبول ، فرأى ليلة القدر ! فصرخ الناس معه الى ان علا ضجيجهم بالبكاء والدعاء والصلاة والطواف الى الصباح ، وخرج والدي في اودية مكة هائماً في السياحة ، ولم يدخل الحرم الى يوم العيد في تلك السنة .

وحكى لي ايضاً قال : كان الشيخ يتردد الى المسجد المعروف

---

١) هي احدى الليالي العشر الاخيرة من رمضان ، التي عددها فرد لا زوج ، كالخامسة والسابعة .

بالمشتهى ، في ايام النيل ، ويحب مشاهدة البحر ... فتوجه اليه يوماً ، فسمع قصَّارًا يقصر ويضرب مقطعاً على الحجر ويقول :

قطع قلبي هذا المقطع ما كان يصفو او يتقطع

فما زال الشيخ يصرخ ، ويكرر هذا السجع ساعة بعد ساعة ، ويضطرب اضطراباً شديدًا ، ويتقلب على الارض ، ثم يسكن اضطرابه حتى يظن انه قد مات ، ثم يستفيق ويتكلم معنا بكلام لدني ما سمعنا مثله قط ، ولا نحسن ان نعبر عنه ، ثم يضطرب على كلامه ، ويعود الى حال وجده ... ولم يزل على هذا الحال من حين سمع كلام القصار الى ان توفي ، رحمة الله عليه » .

قال ابن خلكان (٦٠٨ – ٦٨١ هـ) = (١٢١١ = ١٢٨٢) في ترجمة ابن الفارض :

« سمعت انه كان رجلًا صالحاً ، كثير الخير ، على قدم التجرد ، جاور بمكة زماناً ، وكان حسن الصحبة ، محمود العشرة » .

تصوفه

الحب كائن حي خاضع لقوانين الحيـاة ، يعوزه الغذاء اليومي ، وينمو ببطء الزمن ، وغنى الروح زبدة آلامنا وافراحنا ، ونغم الحياة المتكسرة على شواطئنا .

لهذا اذا ولجت يوماً هيكل حب تستوحيه اسراره ، او وقفت امام شاعر تتفهم روحه ، فانت لن تسمع ولن ترى ما لم تغص في اعمـاق الماضي ترافق نمو ذاك الحب ، وتموجات هذه الروح .

وانا لنحتاج الى مثل هذا الولوج في ثنايا الزمن ، وطيات الحياة ، عندما نعرض لدرس ابن الفـارض ، لفهم ذاك القلب الذي احب حتى الفناء ، وغنّى الشعر حتى الثمل .

ولكنها امنية خائبة ، لان التاريخ قد اهمل ابن الفارض اهمالًا ، فجهلنا مناهل فكره ، وتاريخ قلبه ، واحداث حياته . ان غواة الزهور اذا صادفوا منها جميلًا ، دهشوا به ، ونهلوه شماً وتحديقاً ، وفاتهم السؤال عن التربة التي نبت فيها ، واليد التي تعهدته بعنايتها ، والسماء التي مدته بنورها . وكأن الناس دهشوا بشعر ابن الفارض ، وثملوا بنغماته ، فاكتفوا به ، واعرضوا عن روح غنته ، وحياة ابدعته ، حفظوا الشعر وشرحوه ، واهملوا الشاعر او نسوه .

اجل ، هناك ترجمة غير يسيرة وضعها الحفيد نقلًا عن الولد ، تراه فيها جميلًا وقورًا ، وزاهدًا ابيًّا ، وصائمًا جائرًا ، وحاجًا يطيل حجه او سائحًا يناجي ربه . وتراه دائم الوجد ، دائم الرقص والصراخ ، يتبرّك بثيابه الناس ، وتحدث على يده الكرامات .

ولكنها ترجمة حفيد ، يوحيها التشيع ، ويسودها الغلو ، فلا يسعنا الاطمئنان الى كل ما تسرده من كرامات ، وتصفه من زهد وصوم .

انما مهما كان ايمانك وايماني ضعيفين ، ومهما بالغنا في التحفظ والاتهام فهناك حقائق لا بد من اقرارها .

واول ما لا سبيل الى انكاره فضيلة ابن الفارض ، او على الاقل نزوعه الى الفضيلة . ان ابن خلكان يثبت صلاحه ، واقدامه على التجرد والخير ، ويثبته لا كحكم شخصي عليه ، بل كما سمعه ، اي كما اجمع الناس على تأكيده ، وقلما اجمع الناس على صلاح موهوم . ثم اننا مهما اتهمنا الحفيد بالتشيع لا نستطيع اتهامه بالاختلاق المحض ، بتقديس شخص لم يكن لينزع الى القداسة . لقد بالغ الحفيد وجسم ، ولكنه لم يتخيل تخيلًا ، ويخترع اختراعاً . انه غالى في تواجد جده ، كما غالى في كراماته واصوامه ، انما لسنا نشك في انّ ابن الفارض كان صوفيًّا مخلصاً في تصوفه ، صادقاً في اقباله على التقوى ومناجاة الله .

وامر ثانٍ لا سبيل الى انكاره هو استعداد ابن الفارض الفطري للتصوف . ان حالة الوجد تنتهي في اوجها الى فقدان الشعور بالوجود الذاتي المستقل ، والاندماج المطلق بالعالم الخارجي ، او قل بالله الذي لم يعد العالم سوى بعض مظاهره المحسوسة . لهذا كل نزعة الى الخلوة ، الى خرق حدود الناس للانبساط في حضن الطبيعة الفسيح ، او الذهول امام موجات البحار ، الاتية من شواطىء بعيدة ، كل نزعة الى توسيع الآفاق ، وهدم سدود الشخصية المحدودة ، نعدها استعدادًا فطرياً للتصوف . ومثل هذه النزعة واضحة عند ابن الفارض ، تثبت وجودها سياحاته الطويلة ، وخلواته المتواصلة ، وانسه بالجبال والبحار .

واذا سلمنا بان ابن الفارض كان مفطورًا على التصوف ، وانه جارى فطرته فزهد واحب ، وكوّن له روحانية غنية ، يصبح من الشيّق درس هذه الروحانية وتحليل عناصرها الفكرية والعاطفية ، وهذا ما نحاوله الآن استنادًا الى شعره اجمالًا وتائيته خاصة .

ان معتنقي الاديان القائلة بالثواب والعقاب يحتارون غير قليل في ما سموه الرذل . اذا كان الله سبق فرأى ان موسى ، مثلاً ، سيكفر به او يعصاه فيكون نصيبه الهلاك ، فلماذا خلقه ، وهو لو خُير لآثر العدم على عذاب ابدي ؟ ان معضلة كهذه تضع عدالة الله ، او على الاقل محبته ، موضع بحث وريب ، وقد اثارت جدالات طويلة ، وحلولاً متنوعة ، لا يتسع مثل هذا الدرس لعرضها .

اما القرآن فقد حل هذه المعضلة بافتراضه عهداً ازلياً اخذه الله على البشر بطاعته وحبه . جاء فيه : « واذ اخذ ربك من بني آدم ، من ظهورهم ، ذريتهم واشهدهم على انفسهم : الست بربكم ؟ قالوا بلى . — شهدنا ان تقولوا يوم القيامة : انا كنا عن هذا غافلين ! » (٧^١٧١) . فالله اذاً احضر يوماً امامه كل الاجيال التي ستلد من آدم ، واخذ عليهم قسماً بطاعته ، ولهذا اصبحوا مسؤولين عن اتيانهم الوجود ، وارتكابهم المعاصي ، وسيذكر الله الضالين قسمهم يوم القيامة .

وان هذه العقيدة كانت منهلاً خصباً لخيال المتصوفين وشعورهم .

لقد جعل الصوفيون من يوم الميثاق هذا يوم ولاء شرب فيه المختارون الخمرة الابدية ، خمرة الحب الالهي ، تلك التي تغنى بها ابن الفارض في شعره :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم

وجعلوا من يوم الميثاق ايضاً يوم الهام ازلي ، افاض به الله علمه على اوليائه ، فكان للنفس من المعرفة ما كان لها في عالم « المثل » الافلاطوني ، وكان لها تذكار كالتذكار الافلاطوني :

وفي عالم التذكار للنفس علمُها المقدَّمُ ، تستهديه مني فتيتي .

فالصوفي اذاً في عالمنا غريب . هو آتٍ من شواطىء قصية ، حيث

تجلت له الالوهة لمحة ، فتركت في قلبه نشوة جمال ذابت على ذكراها الدهور ، وفي عقله غمرة نور خبت لديها حكمة الاجيال . لكنه اذ اتى عالم الخلق ، وحلّ في هذا الجسد ، انتابته نزعات قوية تحوله عن ربه ، وتنسيه عهدًا قطعه ، وخمرة سكر بهـا ، وبهرت حواسه اشعة النور الزائل تحجب عنه انوار الفجر الاول .

فهناء الصوفي اذًا في التخلص من قيود الجسد ، والغفلة عن سحر الالوان والخطوط ، كي يجدد الله في قلبه خمرة الحب الاول ، ويسكب في روعه نوره وهداه .

لهذا ترى ابن الفارض يحاول تكسير قيوده الارضية ، تحثه ذكرى عهده السابق ، ويقلقه الحنين الى النشوة الاولى .

تراه يعرض عن المجد الى ذل الخمول ، وعن الغنى الى الفقر القنوع ، وعن بهجة الحياة الى الموت في سكرة الهوى :

وماذا عسى عني يقال سوى قضى فلان هوى ، من لي بذا وهو بغيتي ؟

انا لا تظنن ان مثل هذا التحرر من اميال الارض ، من مجد يبهرنا ، ومال يشبع شهواتنا ، وهناء يحبب الينـا الحياة ، لامر سهل نحققه اذ نشاء . ان مثل هذا التحرر لعمل طويل شاق ، واذ تخالنا بلغناه نرانا نجد في اعراضنا عن المجد مجدًا اخفى ، وفي طلبنا الفقر غنى اسمى ، وفي احتقارنا الموت شهوة حياة اهنـأ ، نرانا لا نزال قطب جهادنا ، وغاية سبلنا ، حين كنا نطلب الفناء في الله ، والعودة الى ولاء يوم الميثاق . ان حب الدنيا قيد ، وحب الآخرة اثم ، ورجاء الكمال أثرة ، فانزع منك كل ميل ، وتجرد عن كل غاية ، واطلب ربك حبيباً وحيدًا .

هو هذا الهدف دفع ابن الفارض الى ذاك الصوم الطويل يروض به جسده ، وذاك السهر الطويل يناجي فيه ربه ، وذاك الحج الطويل يتثبت

فيه من قوته ليخطو الخطوة الكبرى النهائية ، خطوة الصوفي نحو الاتحاد بربه ، وتلاشي حدود الشخصية للفناء في الوجود الكلي . لقد ضاقت به حدود كيانه ، وحدود العالم ، فاخذ يهدم تلك الحدود ، يقطع كل علاقاته بالارض وبلذات الارض ، ويزهد في كل رغائب النفس وشهوات الذات ، يتعرى من حدود المكان والزمان ليتصل بالله الذي لا يحصره وقت او يحده اين .

ولكن الله حبيبة عزيزة الوصل ، عزيزة المنال ، تلذ القطيعة ، وتستعذب الالم ، واذا ابن الفارض حبيب ولهان لا تجف له دمعة او يهدأ له حنين ، يشكو الهجران شكوى اتعس المحرومين ، ويعاني الجفاء معاناة اصبر المحبين ، علَه يأتي يوم ترق فيه الحبيبة لالامه ، وترضى عن جهاده ، فتمزق الحجب ، وتكشف القناع ، وتناجيه نجوى الحبيبة في هدأة العشايا .

وابن الفارض على يقين من مجيء ذاك اليوم ، يقين الحب من قوته . الشرع عقائد جافة ، والفاسفة اراء حائرة ، وكل سبل العقل محدودة ضيقة ، فاذا لم يكن الحب سبيل الله ، فقد ضاعت السبل ، وانقطعت الصلة بين الانسان وربه .

وحج ابن الفارض الى مكة ، وقضى فيها خمس عشرة سنة ، يسوح في وهادها وتلالها ، قلقاً ضائعاً ، ينتظر السياحة العظمى الى الوطن الاول . على الجبل سمع موسى ربه[1] ، وفي ليلة وحيدة مختارة اسرى الله باحمد عبده[2] ، واراه بهاء وجهه ، فعلى اية تلة من تلال مكة سيناديه الله ، واية ليلة من ليالي الطواف سيجذبه اليه ؟

١) ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربه ، قال : ربِّ ، أرني انظر اليك . قال : لن تراني ! (سورة الاعراف : ١٤٣)

٢) سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى (اي السماء) . . . (سورة الاسراء : ١)

ومن ادراك ؟ لعل الوجد الاول كان طوافاً ليلياً !.. دار ابن الفارض ودارت في اذنه نغمات المصلين ، وفي روحه هزة المنى ورعشات الحنين ، واذا نغم بعيد يأتيه من عالم سحيق ، نغم حديث ربه له يوم الميثاق الازلي ، واذا الروح تنفض عنها ظلال الزمن ، وتستفيق في لحظة على نشوة المسامرة الاولى .

هي الستور قد هوت ، وهو جمال الله قد بدا ، وهي الروح تحس رعشة طرب لم تعرف مثلها قبل اليوم ، وتحس سكرة حب تغيب عندها كل سكرات الارض ، وتغيب الارض نفسها ، بل تغيب هي عن ذاتها في دهشة السفور الاول .

ايدهشك بعد ذاك ان ترى ابن الفارض مصفقاً راقصاً مضطرباً ، وان يكون ذاك فاتحة نوبات وجدية عديدة ، كثر فيها التصفيق والرقص والاضطراب ؟ ولِمَ يدهشك ؟ الا ترى الطفل ، اذا غنّى له مربيه ، جدّت فيه رعشة لا يسكّنها الا الهزّ ؟ هو الغناء ذكره بخطاب يوم الميثاق وهي العودة الى الوطن هاجت في نفسه الحنين ، وهو الهزّ عاد به الى الهدوء . وان السماع يبعث نفس الذكرى ، وان ارواح الاولياء تحس نفس النزعة الى الله ، وان الحركة والرقص يخففان من نزعتها ويسكّنان.

•

وابن الفارض اذ تجاوز عهد الرياضة ، وبلغ الوجد ، اصبح يحدثنا عن اتحاده بالله ، وما اولاه ذاك الاتحاد من علم بالغيب واتيان الكرامات، كما اصبح يتغنى بوحدة الوجود الكوني ووحدة الجمال.

وفي حال الاتحاد بالله ، تتجرد النفس من شواغل الحس ، وتستعيد علمَها القديم ، علماً دونه كل علم بشري . وما هذا بالغريب . ألا ترى النفس ، وقد حررها النوم من قيود المحسوس ، تنقل لك اسراراً من عالم الغيب ؟ فلِمَ لا يستطيع الصوفي في يقظته ، وقد اتحد بالله وغاب عن

كل محسوس ، ان يعلن لك اسرار علمه القديم ، بعد ان مثل لديه الغابر والآتي ، وتساوت لديه الابعاد ، وبلغ ذروة الهدى ؟

وما العلم بالغيب سوى نوع من انواع الكرامات ، ومظهر من مظاهر القوة النفسية . هي النفس اذا تجردت من هواها ، وتعرت من اميالها ، تضاعفت قواها ، واستطاعت ما استطاعه قبلها الانبياء ، ما استطاعه موسى وابراهيم وعيسى واحمد ، فسخرت الطبيعة ، وشفت المرضى ، واقامت الموتى ، ودعت الى الهدى.

وليس حال الاتحـــاد مجرد غيبةٍ عن محسوس ، وتحرر من هوى ، وقدرة على معجز ، ان هي في اوجها الا عودة الى وحدة او فناء في كل.

ان ابن الفارض رأى في سني الاتحاد ما كان يحسه ابدًا في اعماق كيانه ، رأى كل وجود فردي ظلًّا من ظلال الوجود الكلي ، وكل جمال محسوس مسحة من بهائه . واذًا لمَ يعدد الكائنات ؟ لمَ يفرق ويفصل ؟ الله هو الكائن الوحيد اللامنظور ، وما الكائنات سوى مظاهره المحسوسة ، صفاتها صفاته ، وافعالها افعاله ، فحتامَ يقف عندها قصيرو النظر وضعيفو الروح ؟ اما هو ، وقد ولج ابواب الملكوت ، فلن يفرق بين خالق ومخلوق ، ولن يميز بين نفسه وربه ، بل توحد لديه الوجود ، وتلاشت الاشخاص والفروق.

كل جمال جمال الله ، وكل عاشق عشق الله ، وكل حب لو يعلمون نقي. روح الصوفي نفحة من آله ، هوت وعادت ، واذا هي والله واحد ، تعلم ما يعلم ، وتعمل ما يعمل ، عنها صدر الوجود ، وبها هام العشاق ، ولها صلى المتعبدون ، وفيها توحدت الآلهة واستوى الناس في الاديان !..

ولكن ما هذا ، أهذي ام حكمة ، اكفر ام تقى ؟ وما عسى الفقهاء يحكمون ؟

ما هذا الحب الذي يستبيح كل جميل ؟ ما هذا الاتحاد بالله الذي يوّحد الكثير ، ويرفع الفروق ، ويلاشي الطاعات ؟ ان هذا الا اباحة هوى ، وطرح فروض ، وكفر ذميم ! ان هذا الا حلول يرفضه العقل ، ويحرمه الاسلام ، ويعاقب السلطان اهله !..

هذه تهمات وجهها بعض الفقهاء الى ابن الفارض وذموه ، ودفعها بعضهم وقدسوه . اما هو فحاول دفع التهمة ، وصيانة السمعة ، فاشاد بقداسة حياته ، واستقامة اسلامه ، نافياً كل ريبة ، وعمد الى الامثال والقرآن يوضح رأياً ، ويدعم عقيدة.

ان الله يتحد بالصوفي اتحـادًا وثيقاً ، فيتكلم بلسانه ، ويعمل باعضائه ، فتتوهم العبد عاملًا ، وما عمل الا الله . لقد ظهر جبريل للنبي بصورة رجل اسمه دحية ، فكان النبي يرى جبريل والحاضرون يظنونه دحية ، فلمَ لا يكون ظهور الله في الصوفي ظهور جبريل في دحية ؟ ثم قد تصرع الجن امرأة ، وتتكلم على لسانها بلغة غير لغتها ، فيخال الحاضرون المرأة متكلمة لا الجن ، فلمَ لا يعمل الله في الصوفي ما تعمل الجن في امرأة صرعتها ؟ ان كلا المثلين يثبت اتحادًا بين الله والصوفي يجعل الله عاملًا في الحقيقة ، والصوفي في الحس والظاهر ، ومثل هـذا الاتحاد لا ينفي الاثنينية ، ويعني وحدة الوجود ، بل يعطل العبد من كل عمل بين يدي خالقه ومحبوبه.

ثم ما ينفّر الفقهاء من اثبات هذا الاتحاد ؟ ألم يكن المعراج النبوي شكلًا من اشكاله ، ومثالًا اعلى يطمح اليه المختارون ؟ اما دنا النبي من الله فكان منه على قاب قوسين او ادنى ، واراه الله ما لم يرِه موسى ، جمالَ وجهه وكامل علمه ؟ فهل من حرج اذا اقتفى الناس خطى النبي ، وامنوا بالوحي ؟

هذه ادلة حاول بها ابن الفارض دفع تهمة وحدة الوجود ، وسلامة

الايمان والاخلاق . وهذه المحاولة ، وان لم تنفِ كل وحدة ، فهي تراخٍ في العقيدة ، ونقض لابيات كهذه :

فوصفي، اذ لم تدعَ باثنين، وصفها ، وهيئتها ، اذ واحد نحن ، هيئتي
وما زلت اياها ، واياي لم تزل ولا فرق ، بل ذاتي لذاتي احبتِ

ونحن اذ نقول هذا تعرض لنا فكرة تلطف كثيرًا من تحامل الناس على من اتهموهم بوحدة الوجود ، بل من كل تحامل . اننا لسنا نرى في اقوال الصوفيين سوى اغراق في اللفظ ، وطريقة من طرق الاقناع ، ارادوا بها افهامنا صِلاتنا الوثيقة بالله ، وتعلق الكون بقدرته ، اما القول بالوحدة المطلقة — كالقول بالجبر — فكلام خالص لم يعتقد به بشر ، او وهم عارض يبدده الواقع. ان التفاوت كبير بين قولنا ونياتنا ، وبين نياتنا وعملنا ، فنحن نقول اضعاف ما ننوي ، وننوي اضعاف ما نعمل . فوحدة ابن الفارض — بل كل وحدة — اغراق في اللفظ اكثر مما هي عقيدة في العقل ، وشهوة في الروح اكثر مما هي هدف عملي ، فان توقفت على الالفاظ شجبت ابن الفارض وكفرته ، وان تجاوزت اللفظ رأيت شاعرًا تضايق الحواجز احساسه فيتوق الى الافلات ، ورأيت متعبدًا هائمًا يود الفناء في محبوبه شأن كل المتعبدين الهائمين.

ان ابن الفارض كان معتدل العقيدة ، قويم العمل ، سليم الاخلاق ، مهما اوهمت ابياته ، ونتائجها المنطقية ، ومتى خضعت الارواح للمنطق وتقيدت بنتائجه ؟

وان بين ابن الفارض وافلاطون نسبًا روحيًا ، وبين عقيدتيهما شبهًا غير خفي. علّم افلاطون ان النفس هبطت من عالم مثالي كامل لتشقى فترة في عالم الحس ، ثم تعود الى عالمها الكامل . ورأى ابن الفارض ان الروح شربت يوم الميثاق عهد الولاء الازلي ، ثم اتت هذا العالم غريبةً

تحن الى غابر ، وسجينة تفك قيود الهوى ، عساها تعود الى ولاء الوطن الاول.

هي المياه في الساقية تجري هادئة صافية الى ان تصطدم بالصخرة فتضطرب ويلونها الحباب ، ثم تعود تجري هادئة صافية.

وانها لفكرة شائعة في تاريخ الانسانية ان نفترض للنفس عهدين سعيدين يفصلهما عهد جهاد شقي.

فهل تكون ذكرى نعيم فقدناه ، ورجاء نعيم ؟

مختارات من شعره

الخمرية

شربنا على ذكر الحبيب مُدامة ... سكرنا بها، من قبل ان يُخلق الكرم[1]

فان ذُكرت في الحي، اصبح اهله ... نشاوى، ولا عار عليهم ولا اثم

وان خطرت يوماً على خاطر امرئ ... اقامت به الافراح وارتحل الهم

ولو نضحوا منها ثرى قبرِ ميّت ... لعادت اليه الروح، وانتعش الجسم

ولو طرحوا في فيْ حائط كرمها ... عليلًا، وقد اشفى، لفارقه السُّقم

ولو قرّبوا من حانها مُقعدًا مشى ... وتنطِق من ذكرى مَذاقتها البُكم

ولو عبِقت في الشرق انفاس طيبها ... وفي الغرب مزكوم، لعاد له الشم

ولو خُضبَت من كاسها كفّ لامسٍ ... لما ضلّ في ليل، وفي يده النجم

ولو جُليت سرًّا على اكمهٍ غدا ... بصيرًا، ومن راووقها تسمَع الصُم

ولو ان ركباً يمّموا تُرب ارضها ... وفي الركب ملسوع، لما ضره السُم

يقولون لي صفها، فانت بوصفها ... خبير، اجل عندي باوصافها علم

صفاء ولا ماء، ولطف ولا هوًا ... ونور ولا نار، وروح ولا جسم[2]

وقالوا شربتَ الاثم، كلا وانما ... شربت التي في تركها عندي الاثم

هنيئاً لاهل الدير كم سكروا بها ... وما شربوا منها، ولكنهم همّوا

وعنديَ منها نشوةٌ قبل نشأتي ... معي ابدًا تبقى، وان بَلي العظم

على نفسه فليبكِ من ضاع عمره ... وليس له فيها نصيب ولا سهم!

---

١) هي خمرة الحب الالهي التي شربها المختارون يوم الميثاق

٢) اي انها ليست من العناصر الاربعة، الماء والهواء والنار والتراب

التائية الكبرى

او

نظم السلوك

تبلغ تائية ابن الفارض ٧٦٠ بيتاً . وقد اخترنا لك منها اهم مقاطعها ، مظهرين جهدنا التأليف الشائع فيها .

١ — ألم الحب الوفي

١ سَقتني حُميَّا الحب راحةَ مقلتي — وكأسي محيَّا مَن عن الحسن جَلّتِ
فاوهمتُ صَحبي ان شُرب شَرابهم — به سُرَّ سري ، في انتشائي بنظرة
وبالحدق استغنيت عن قدحي ، ومن — شمائلها ، لا من شمولي ، نشوتي [1]
وقلتُ ، وحالي بالصبابة شاهد ، — ووجدي بها ما حيَّ ، والفقد مثبتي [2] :
هبي ، قبل يُفني الحبُّ مني بقية — اراكِ بها ، لي نظرةَ المتلفت
ومُني على سمعي بلن ، ان منعتِ ان — اراكِ ، فمن قبلي لغيري لذت [3] .
فلو كشف العُوادُ بي ، وتحققوا — من اللوح ما مني الصبابةُ ابقت ،
٣٩ لما شاهدت مني بصائرهم سوى — تخللِ روحٍ بين اثواب ميتِ
ولم احكِ في حبيك حالي تبرماً — بها ، لاضطرابٍ ، بل لتنفيس كُربتي
ويحسن اظهارُ التجلد للعدى — ويقبح غيرُ العجزِ عند الاحبة
وكل اذًى في الحب منكِ اذا بدا — جعلت له شكري مكان شكيتي
ومن يتحرش بالجمال الى الردى — رأى نفسه من انفس العيش رُدتِ
٦٠ وما ظفرت بالوُد روح مراحةٌ ، — ولا بالولا نفسٌ صفا العيش وَدتِ

(١) سكر الشاعر بخمرة الحب الالهي ، لا بخمرة الكرمة .

(٢) الوجد : حالة يغيب معها كل محسوس ، والوجود الذاتي نفسه ، فكأن لا موجود سوى الله . الفقد : زوال الوجد ، فالشعور بالوجود الشخصي .

(٣) مُني . . . بلن : قولي « لن تراني » كما قلتِ لموسى عندما طلب رؤية الله ، فان سماع كلامك ، عند تعذر الرؤيا ، لذيذ .

ولي نفسُ حرٍ لو بذلتِ لها على تسلّيكِ ما فوق الُمنى ما تسلَّتِ
وعن مذهبي في الحب ما لي مذهبٌ وان ملتُ يوماً عنه فارقت ملتي .
ومحكَمِ عهدٍ ، لم يخامره بيننا تخيلُ نسخٍ ، وهو خيرُ أليةِ[١]،
وأخذكِ ميثاقَ الولا، حيث لم أَبنْ بمظهرِ لَبس النفسِ في فيءْ طينتي[٢]،
وسابقِ عهد ، لم يحُل مذ عهدته ، ولاحقِ عقدٍ جلّ عن حلِ فترة[٣]،
وسرِ جمال ، عنكِ كل ملاحةٍ به ظهرت في العالمينَ وتمت ،
٧٦لانتِ مُنى قلبي ، وغايةُ بغيتي واقصى مرادي،واختياري،وخيرتي .

٢ — اتهام الحبيبة

٨٤فقالت : هوى غيري قصدتَ ،ودونه اقتصدتَ ، عميًا عن سواء محجتي[٤]
واين السهى من اكمه، عن مراده سها عمهاً ؟ لكن امانيك غرّتِ[٥]!
فقُمتَ مَقاماً، حُطَّ قدرُك دونَه، على قدمٍ عن حظها ما تخطَّت[٦]
ورمتَ مَراماً دونَه كم تطاولت باعناقها قومٌ اليه فجُذّت[٧]

---

١) ومحكم عهدٍ : يقسم بحبه الثابت لها .

٢) ميثاق الولا : هو عهد الحب الذي اخذه الله على مختاريه ، قبل خلقهم . ان الله احضر يوماً امامه كل الاجيال التي ستلد من آدم ، واخذ عليهم قسماً بطاعته ، وعهداً بحبه . (انظر الدرس ص ٦٣) . مظهر لبس النفس : مظهر النفس وهي غارقة في ظلمة الاجساد ، ملتبسة على الناظر . الطينة : البدن .

٣) العهد السابق : العهد الذي اخذه الله على خلقه يوم اسلموا . حَل : حلول . فترة : ضعف .

٤) هو غيري : هوى نفسك كما يظهر من البيت ٩٨ . دونه اقتصدت : لم تصل الى حبي .

٥) السهى : نجم . اكمه : اعمى . العمه : الضلال . امانيك غرت : امالك تخدعك وتكذب عليك .

٦) قمت مقاماً : هو مقام الحب الذي تقصر دونه قدماك .

٧) جذت : قُطعت .

وجئتَ بوجهٍ ابيضٍ، غيرَ مسقطٍ لجاهك في داريك، خاطب صفوتي[١]
ونَهجُ سبيلي واضحٌ لمن اهتدى ولكنها الاهواء عمّت فاعمتِ
وقد آن ان ابدي هواكَ، ومن به ضناكَ، بما ينفي ادعاكَ محبتي
٩٨ حليفُ غرامٍ انت، لكن بنفسه، وإبقاكَ وصفاً منكَ بعضُ ادلتي
فلم تهوَني ما لم تكن فيَّ فانياً ولم تفنَ ما لا تُجتلى فيكَ صورتي[٢]
١٠٠ فدع عنك دعوى الحب، وادعُ لغيره فؤادكَ، وادفع عنك غيَّك بالتي[٣]
١٠١ وجانبْ جَنابَ الوصلِ هيهاتَ لم يكن وها انت حيٌّ، ان تكن صادقاً متِ!

٣ — دفع التهمة

١٠٣ فقلتُ لها روحي لديكِ وقبضُها اليك، ومن لي ان تكون بقبضتي!
وماذا عسى عني يقالُ سوى قضى فلانٌ هوًى؟ من لي بذا وهو بغيتي!
واني الى التهديد بالموتِ راكنٌ ومن هوله اركانُ غيريَ هُدّتِ[٤]
وها انا مستدعٍ قَضاكِ، وما به رضاكِ، ولا اختار تأخيرَ مُدتي[٥]
ومن درجات العزِّ امسيتُ مُخلداً الى دركات الذُل، من بعد نخوتي
١٢٥ فلا بابَ لي يُغشى ولا جاه يُرتجى ولا جارَ لي يُحمى لفقدِ حميتي
كأن لم اكن فيهم خطيراً، ولم ازل لديهم حقيراً، في رخاءٍ وشدةٍ
وكلُّ مقامٍ عن سلوكٍ قطعتهُ عبوديةً حققتها بعبودةٍ[٦]
٢٠٥ فصرتُ حبيباً بل مُحباً لنفسه وليس كقولِ مرٍّ: نفسي حبيبتي[٧]!

١) بوجه ابيض: مع الجاه والغنى.
٢) ولم تفنَ... : لا تحبني ما لم تُرَ فيك صورتي، وتزُلْ صورتك.
٣) بالتي: بالتي هي احسن الخصال اي بالصدق.
٤) هو يرضى بالموت الذي تطلبه منه برهاناً على حبه في البيت ١٠١.
٥) قضاك: حكمك عليَّ بالموت.
٦) العبودية والعبودة: صاحب العبودية يترك خيرات الارض لخيرات الاخرة وصاحب العبودة يترك خيرات الاخرة نفسها لاجل المحبوبة.
٧) بعد سلوك طريق الحب، والوصول الى الاتحاد بالمحبوبة، احبتني واحببتها

٤ — الفناء في الحبيبة

٢٠٦خرجتُ بها عني اليها ، فلم اعد الي ، ومثلي لا يقول برجعة
وها انا ابدي في اتحادي مَبدأي، وانهي انتهائي في تواضع رفعتي[1] :
جلت، في تجليها، الوجودَ لناظري ففي كل مرئي اراها برؤية
وطاح وجودي في شهودي وبنت عن وجود شهودي ، ماحياً غيرَ مثبت[2]
فوصفي ، اذ لم تُدعَ باثنين ،وصفها وهيئتها ، اذ واحد نحن ، هيئتي
فان دُعيت كنتُ المجيبَ وان اكن منادَى اجابت من دعاني ولبت
فقد رُفعت تاء المخاطب بيننا وفي رفعها عن فرقة الفَرق رفعتي
فان لم يجوّز رؤيةَ اثنين واحداً حجاك ، ولم يُثبت لبعد تثبت ،
٢٢٠سأجلو اشارات عليك خفيةً بها كعبارات لديك جلية ،
واثبت بالبرهان قولي ضارباً مِثال مُحقٍ ، والحقيقة عُمدتي ،
بمتبوعةٍ يُنبيك في الصرعِ غيرُها على فمها ، في مسّها حيث جُنت ،
ومن لغةٍ تبدو بغير لسانها ، عليه براهين الادلة صحت ،
٢٢٥وفي العلم حقاً ان مُبدي غريبِ ما سَمِعتَ سواها ،وهي في الحس ابدتِ[3]
فلو واحداً امسيتَ اصبحت واجداً منازلةً ما قلتُه عن حقيقةٍ[4]

وكأني احب نفسي ، لا كما اتهمتني من قبل (بيت ٩٨) باني احب نفسي دونها .

١) اخبرك اولًا عن مقام الاتحاد ، ثم احدثك عن مقام التفرقة الذي انتهي اليه تواضعاً .

٢) غبتُ عن وجودي اذ شهدت المحبوبة ، ثم غبت عن الشهود نفسه ، فلم اعد اميز بين شاهد ومشهود .

٣) اذا احال عقلك ان اكون والحبيبة واحداً ، فسأضرب لك مثلًا يجوز لك ذلك . تصور امرأةً متبوعة صرعتها الجن وتكلّمت على لسانها بلغة غير لغتها ، فالمرأة متكلمة في الظاهر ، والجن في الحقيقة . وكذلك شأن العبد مع ربه في حال الاتحاد ، العبد يعمل في الظاهر ، والله في الحقيقة .

٤) لو اصبحت واحداً والله ، ونفيت التفرقة ، لخبرت عن طريق المنازلة ، اي الاتحاد بالله ، صحة دعواي .

٢٣٦ فجاهد تشاهد فيك منك وراءَ ما ... وصفتُ سكوناً عن وجود سكينة[1]

٢٤٠ وفارق ضَلال الفرق فالجمع منتجٌ ... هُدى فرقةٍ بالاتحاد تحدتِ[2]

وصرح باطلاق الجمال، ولا تقل ... بتقييده ميلًا لزُخرف زينة[3]

فكل مليح حسنه من جمالها ... معارٌ له ، بل حسن كل مليحة

بها قيس لبنى هام بل كل عاشقٍ ... كمجنون ليلى او كُثيرِ عَزة

فكلّ صبا منهم الى وصف لَبسها ... بصورة حسن لاح في حسن صورة[4]

٢٤٥ وما ذاك الا ان بدت بمظاهر ... فظنوا سواها ، وهي فيها تجلت

ففي النشاة الاولى تراءت لآدمٍ ... بمظهر حوا ، قبل حكم الامومة

فهام بها كيما يكون بها ابا ... ويظهر بالزوجين حكم البنوة

٢٥٠ وما برحت تبدو وتخفى لعلةٍ ... على حسب الاوقات في كل حِقبة

وتظهر للعشاق في كل مظهرٍ ... من اللّبس في اشكال حسن بديعة[5]

كذاك، بحكم الاتحادِ بحسنها، ... كما لي بدتْ في غيرها وتزيتِ ،

بدوتُ لها في كل صبٍ متيمٍ ... بايٍ بديعٍ حسنُه وباية

ففي مرة قيساً ، واخرى كثيراً، ... وآونةً ابدو جميلَ بُثينة

وما زلتُ اياها واياي لم تزل ... ولا فرقَ، بل ذاتي لذاتي احبتِ !

ولكن لصدِ الضِدِ عن طعنه على ... علا اولياء المنجدينَ بنَجدتي[6]

رجعت لاعمال العبادة عادةً ، ... واعددت احوال « الارادة » عُدتي

---

١) جاهد في سبيل الاتحاد ، فتجد فيه هدوءًا ناتجًا عن استقرارك في الله.

٢) تحدت : تنافست.

٣) الجمال واحد ، هو جمال الله ، فلا تجزئه مغرورًا بمظاهره المحسوسة الخلّابة.

٤) لبسها بصورة حسن . ظهورها ظهورًا غامضًا من خلال الالوان المحسوسة.

٥) اللّبس : مظهر الغموض والاشكال الناتج عن ظلمة الاجساد.

٦) رفعًا لطعن المشايخ في حق الصوفيين ، القائلين بالاتحاد ، المكتفين بالحب عن الاعمال الخارجية ، عاد الى الطاعات ، واعمال العبادة . انجد : اعان . نجدة : بأس.

وصُمت نهاري رغبةً في مثوبة، واحييت ليلي رهبة من عقوبةِ
وبنتُ عن الاوطان هِجران قاطعٍ مُواصلةَ الاخوان، واخترت عزلتي
وانفقت من يسر القناعة، راضياً من العيش في الدنيا بايسر بُلغة
٢٧٥ وهذبتُ نفسي بالرياضة، ذاهباً الى كشف ما حجبُ العوائد غطتِ[1]
٣٨١ صرفتُ لها كلي على يدِ حسنها، فضاعف لي احسانُها كلَّ وُصلةِ
٤١٠ اذا لاحَ معنى الحسن في اي صورة، وناح معنًى الحزن في آي سُورة[2]
يشاهدها فكري بطرف تخيلي، ويسمعها ذكري بسمع فطنتي
فأعجب من سكري بغير مدامةٍ، واطرب في سري، ومني طربتي
٤١٤ فيرقص قلبي، وارتعاشُ مفاصلي يصفق كالشادي، وروحي قينتي
٤٣٠ وينبيك عن شأني الوليدُ، وان نشا بليداً، بالهامٍ كوحيٍ وفطنة
اذا أنَّ من شد القماط، وحنَّ في نشاطٍ الى تفريجِ افراط كُربة،
يُناغَى فيُلغى كُلُّ كَلٍّ اصابه، ويصغي لمن ناغاه كالمتنصتِ،
وينسيه مرَّ الخطبِ حلوُ خطابه، ويُذكره نجوى عهودٍ قديمة،
ويعرب عن حال السماع بحاله، فيثبت الرقص انتفاء النقيصة
اذا هام شوقاً بالمناغي، وهمَّ ان يطير الى اوطانه الاولية،
٤٣٦ يسكَّنُ بالتحريك، وهو بمهده، اذا ما له ايدي مربيه هزتِ[3]

١) يمارس الرياضة ليصل الى كشف الحق.

٢) من هذا البيت الى اخر المقطع يتكلم عن السماع. اذا رأى صورةً جميلة، وسمع غناءً بايات القرآن، دخل في الوجد، وبدأت المشاهدة.

٣) في هذه الابيات، يشبه نفسه في حال السماع بالوليد: ان للطفل، وهو لما يعقل، الهاماً شبيهاً بوحي الانبياء او فطنة الحكماء، وانه اذا شُدّ قماطه واكربه، ثم سمع الغناء، ذكّره هذا الغناء بعهود قديمة، بمسامرة الله له يوم الميثاق، فتحرك طرباً، وهمّ بالعودة الى الوطن الاول. ويهزّ له مربيّه فيسكن. وهكذا الصوفي اذا سمع الغناء، ذكر مناجاة الله له، وحنّ الى وطنه الاول، ولكن الرقص البريء — كهزّ المربّي — يسكّن روحه النازعة الى الهها.

٤٨٨ ومن لم يرث عني الكمال فناقصٌ على عقبيه ناكصٌ في العقوبة

٥٨٩ فاتلو علوم العالمينَ بلفظةٍ ، واجلو علي العالمينَ بلحظةِ

واسمع اصواتَ الدعاةِ وسائرَ اللغات ، بوقت دون مقدارِ لمحة

أُحضر ما قد عزَّ للبعد حمله ، ولم يرتددْ طرفي اليَّ بغمضةِ

وانشق ارواح الجنان، وعرفَ ما يصافح اذيال الرياح ، بنسمةِ

واستعرض الآفاق نحوي بخطرةٍ واخترق السبع الطباق بخطوة

ومنيَ لو قامت بميتٍ لطيفةٌ لرُدَّت اليه نفسُه وأُعيدتِ[1]

٦٠٠ هي النفس ان القت هواها تضاعفت قواها ، واعطت فعلَها كلَّ ذرة[2]

بذاك علا الطوفانَ نوحٌ ، وقد نجا به من نجا من قومه في السفينة

ومن يده موسى عصاه تلقفت من السحر اهوالاً على النفس شقت

وفي آل اسرائيل مائدةٌ من السما ء لعيسى انزلت ثم مُدت

٦١٥ وجاء باسرار الجميع مفيضُها علينا ، لهم ختماً ، على حين فترة[4]

٦٥٥ وضربي لك الامثال مني منةٌ عليكَ ، بشأني مرةً بعد مرة[5]

٦٦٤ فقل ليَ من القى اليك علومَه وقد ركدت منك الحواس بغفوة

وما كنتَ تدري قبلَ يومك ماجرى بامسك، او ما سوف يجري بغُدوة

---

١) يتكلم عن كراماته : يتلو علوم العالمين بلفظة ، ويرى ما في العوالم بلحظة، ويسمع صوت كل داعٍ وباي لغة بلمحة ، ويحضر ما فصلته المسافة بطرفة عين ، ويشم كل رائحة زكية بنسمة واحدة ، ويستعرض الارض والسماء بسرعة ، ويقيم الموتى .

٢) تقوى النفس بالتجرد عن الاهواء ، وتصبح كل ذرة قادرة على اتيان الخوارق .

٣) تلقفت : تناولت . شقّت : صعبت .

٤) جاء محمد ، خاتمة الانبياء ، باسرار جميعهم .

٥) يضرب مثلًا يفهمنا به كيف تستطيع النفس بتجردها من علائق الحس ان تأتي بغرائب الاعمال والعلوم .

فاصبحتَ ذاعلمٍ باخبارمن مضى ، واسرارِ من يأتي ، مُدِلًّا بخبرة[١]

اتحسب ماجاراك ، في سِنة الكرى سواكَ ، بانواع العلوم الجليلة؟[٢]

وماهي الا النفسُ ، عند اشتغالها بعالمهــا عن مظهر البشرية ؛

تجلت لها بالغيب في شكل عالمٍ هداها الى فهم المعاني الغريبة[٣]

ولو انها قبل المنام تجردت لشاهدتَها مثلي بعينٍ صحيحةٍ[٤]

وتجريدها العاديُّ اثبت اولًا تجردها الثاني المَعادي فاثبتِ[٥]

ولا تكُ ممن طيشته دروسه بحيث استقلت عقلَه واستقرت

فثم وراء النقلِ علمٌ يدقُّ عن مدارك غايات العقول السليمة[٦]

٦ — النبي مثال الفانين

٧٥٠ ولست مَلوماً ان أبثَّ مواهبي وامنح اتبــاعي جزيل عطيتي

ولي من مفيض الجمع ، عند سلامه عليَّ « بأو ادنى » اشارةُ نسبةٍ[٧]

---

١) في النوم تتصل النفس بعالم الغيب وتطلعك على اسراره .

٢) اتظن شخصاً اخر اطلعك على ما عرفته في المنام ؟

٣) لا ! انها النفس انصرفت عن المظاهر البشرية الى عالمها الروحي ، فتجلت لذاتها عالمة بكل شيء .

٤) لو تجردت النفس في اليقظة من عوائق الجسد لشاهدت ما تشاهد في المنام .

٥) وتجرد النفس من علائق الجسد واتصالها بعالم الروح برهانٌ على خلودها ومعادها .

٦) ما تراه النفس في حال الالهام الصوفي اجلّ من كل علم عقلي او شرعي .

٧) مفيض الجمع : النبي محمد ، وهو في اعلى مراتب من بلغوا الجمع . أو ادنى : هو مقام بلغه النبي من الله ، في معراجه المعروف : «والنجم اذا هوى ، ما ضلَّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحي ، علمه شديد القوى ، ذو مِرّة فاستوى ، وهو بالافق الاعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين او ادنى ، فاوحى الى عبده ما اوحى . . . » (قرآن ٥٣ ، ١ — ١٠) . وقد بلغ الشاعر هذا المقام ، فسلم عليه النبي ، وهذه نسبة بين روح النبي وارواح الاولياء المتصوفين .

ومن نوره مشكاة ذاتيَ اشرقت علي ، فنارت بي عَشائي كضَحوتي[1]
٧٥٧ وبدريَ لم يأفُل ، وشمسي لم تغب ، وبي تهتدي كلُّ الدراري المنيرة .

في نغمة العود

ما بين معتركِ الاحداق والمهجِ انا القتيل بلا اثمٍ ولا حَرَجِ
ودَّعتُ قبلَ الهوى روحي لما نظرت عينايَ من حسن ذاك المنظر البهجِ
لله اجفانُ عينٍ فيك ساهرةٍ شوقاً اليك ، وقلبٌ بالغرام شجِ
اصبحتُ فيك كما امسيتُ مكتئباً ولم اقل جزَعاً يا ازمةُ انفرجي[2]
لا كان وجدٌ به الأماق جامدة ولا غرام به الاشواق لم تهجِ
عذِّبْ بما شئتَ ، غير البعد عنك ، تجدْ اوفى محبٍ بما يرضيك مبتهجِ
وخذ بقيةَ ما ابقيتَ من رمقٍ لاخيرَ في الحب ان ابقى على المهجِ
من لي باتلاف روحي في هوى رشأ حلو الشمائل ، بالارواح ممتزج
تراه ، ان غاب عني ، كلّ جارحةٍ في كل معنى لطيف ، رائق ، بهج
في نغمة العود والناي الرخيم ، اذا تآلفا بين الحـــان من الهزَج
وفي مسارح غزلان الخمـــائل في بَردِ الاصائل والاصباح في البَلَج
وفي مساقط انداء الغمام عـــلى بساط نورٍ من الازهار منتسج
وفي مساحب اذيال النسيم ، اذا اهدى اليَّ سُحيراً اطيب الارج
وفي التثاميَ ثغر الكاسِ ، مرتشفاً ريق المدامة في مستنزَهٍ فَرِج
لم ادرِ ما غربةُ الاوطان وهو معي وخاطري ، اين كنا ، غيرُ منزعجِ

صار بعضي كلي !

انتم فروضي ونَفلي انتم حديثي وشغلي !
يا قِبلتي في صلاتي ، اذا وقفت اصلي ،

---

١) من نور النبي اشرقت ذاتي ، واصبح ليلي كنهاري .
٢) الجزع : ضد الصبر .

جمالكم نَصبُ عيني اليــه وجهت كلّي ،
وسركم في ضميري ، والقلبِ طُورُ التجلي .
آنست في الحيّ نارًا ليلًا ، فبشرت اهلي
قلت : امكثوا ، فلعلي اجــد هدايَ ، لعلي
دنوت منهــا فكانت نار المكلَّمِ قبلي[1] .
نوديت منها كفاحًا[2] ردوا ليــالي وصلي !
حتى اذا مــا تدانى الميقاتُ في جمع شملي ،
صارت جبــالى دكًّا من هيبــة المتجلي
ولاح سر خفي يدريه من كان مثلي
وصرت موسى زماني وصار بعضي كلي !

سائق الاظعان

سائق الاظعان يطوي البيد طيّ منعماً عرّج على كثبان طيّ
وبذات الشيح عني ، ان مررتَ بحيٍ من عُريب الجزع ، حيّ
وتلطف ، واجرِ ذكري عندهم علّهم ان ينظروا عطفًا إليّ
قل : تركتُ الصب فيكم شبحاً ما له مما براه الشوق فيّ
خافياً عن عائدٍ ، لاح كمــا لاح في برديه بعد النشر طيّ ،
بين اهليــه غريباً نازحاً وعلى الاوطان لم يعطِفه لَيّ[3]
جانحاً ان سيمَ صبرًا عنكمُ وعليكمْ جانحاً لم يتــأيّ[4]
حائرًا في مــا اليه امرُه حائرٌ ، والمرء في المِحنة عيّ

---

١) المكلّم : موسى
٢) كفاحًا : وجهًا لوجه
٣) لي : مصدر لوى اي عطف
٤) يتأي : يتوقف

يا أُهيلَ الود أنَّى تنكرو ... نيَ كهلًا بعد عِرفـاني فُتَي
لم يرقْ لي منزلٌ بعد النقا ... لا ولا مستحسَنٌ من بعد مَي
آهِ واشوقي لضاحي وجههـا ... وظما قلبي لذيَّاك اللُّمَي !
انحلت جسمي نحولًا ، خصرُها ... منه حالٍ ، فهو ابهى حُلَيّ
بئس حالٌ بُدّلت من انسها ... وحشةً ، او من صلاحِ العيش غي

. . . .

خففي الوطء ففي الخيف ، سلمتِ ، على غير فؤادٍ لم تَطَي
كان لي قلبٌ بجرعاء الحمى ... ضاع مني ، هل له ردٌّ عليّ ؟
ذهب العمر ضياعاً وانقضى ... باطلًا اذ لم افز منكم بشي !

يا ليل

غيري على السلوان قادر ... وسواي في العشّاق غادرْ
لي في الغرام سريرةٌ ... والله اعلم بالسرائر
ومُشبَّـهٍ بالغصنِ قلبي ... لا يزال عليـه طائر
حلوِ الحديث ، وانها ... لحلاوةٌ شقّت مرائر !

. . . .

يا ليل ، ما لكَ آخِرٌ ... يُرجى ، ولا للشوق آخِرْ
يا ليلُ طلْ ، يا شوق دمْ ... اني على الحالين صابر
لي فيك اجر مجـاهد ... ان صح ان الليل كافر
طرفي وطرف النجم فيـك كلاهما ساهٍ وساهر
يهنيك ! بدرك حاضرٌ ... يا ليتَ بدري كان حاضر !

تلك الليالي ...

قف بالديار ، وحيّ الاربع الدرسا ... ونادها فعساها ان تجيب ، عسى
وان اجنّك ليل من توحشها ... فاشعل من الشوق في ظلمائها قبسا

ياهل درى النفر الغادون عن كلف ... يبيت جنح الليالي يرقب الغلسا
فان بكى في قفار خلتها لجبا ، ... وان تنفس عادت كلها يبسا
فذو المحاسن لا تحصى محاسنه ... وبارع الانس لا أعدم به انسا
كم زارني والدجى يربدّ من حنق ... والزّهر تبسم عن وجه الذي عبسا[1]
وابتز قلبي قسرا . قلت : مظلمة ا ... يا حاكم الحب، هذا القلب لم حبسا ؟
غرست باللحظ وردا فوق وجنته ... حقٌ لطرفي ان يجني الذي غرسا
فان ابى ، فالاقاحي منه لي عوض ... من عوّض الدرّ عن زهر فما بخسا
كم بات طوع يدي والوصل يجمعنا ... في بردتيه التقى لا نعرف الدنسا
تلك الليالي، التي اعددت من عمري ... مع الاحبة ، كانت كلها عرسا
لم يحل للعين شيء بعد بعدهم ... والقلب مذ آنس التذكار ما أنسا
يا جنة فارقتها النفس مكرهة ، ... لولا التأسي بدار الخلد، متُ اسى .

ان الغرام هو الحياة ...

زدني بفرط الحب فيك تحيرا ... وارحم حشى بلظى هواك تسعرا
واذا سألتك ان اراك حقيقة ... فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى[2]
يا قلب انت وعدتني في حبهم ... صبرا ، فحاذر ان تضيق وتضجرا
ان الغرام هو الحياة فمت به ... صبا ، فحقك ان تموت وتعذرا
قل للذين تقدموا قبلي ومن ... بعدي، ومن اضحى لاشجاني يرى :
عني خذوا ، وبي اقتدوا ولي اسمعوا ... وتحدثوا بصبابتي بين الورى !
ولقد خلوت مع الحبيب ، وبيننا ... سر أرق من النسيم اذا سرى
واباح طرفي نظرة أملتها ... فغدوت معروفاً ، وكنت منكّرا
فدهشت بين جماله وجلاله ... وغدا لسان الحال عني مخبرا

١) الزهر : النجوم . الذي عبسا : المحبوب .
٢) هو جواب الله الى موسى : لن تراني !

فادر لحاظك في محاسن وجهه تلقى جميع الحسن فيه مصوَّرا
لو ان كل الحسن يكمل صورة ورآه ، كان مهلّلا ومكبرا

هو الحب !

هوالحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهلُ فما اختاره مضنىً به وله عقلُ
وعش خالياً ، فالحب راحته عناً وأوله سقم واخره قتل
ولكن لدي الموت فيه ، صبابةً ، حياةٌ ، لمن اهوى عليّ بها الفضل
نصحتك علما بالهوى ، والذي ارى مخالفتي ، فاختر لنفسك ما يحلو
فان شئت ان تحيا سعيدًا فمت به شهيدًا ، والا فالغرام له اهل !
احبةَ قلبي ، والمحبةُ شافعي لديكم ، اذا شئتم بها اتصل الحبل
اخذتم فؤادي ،وهو بعضي ،فما الذي يضر كُمُ لو كان عندكمُ الكل ؟
تبـاله قومي اذ رأوني متيماً وقالوا : بمن هذا الفتى مسّه الخبل ؟
وماذا عسى عني يقال سوى غدا بنُعْمٍ له شغل ، نَعم لي بها شغل !
وقد علموا اني قتيلُ لحاظهـا فانَّ لها في كل جارحةٍ نَصل
حديثي قديم في هواها وماله ، كما علمتْ ، بعدٌ ، وليس له قبل
ومالِيَ مِثْلٌ في غرامي بها كما غدت فتنةً في حسنها ما لها مثل
جرى حبّها مجرى دمي في مفاصلي فاصبح لي عن كل شغلٍ بها شغل
فنافسْ ببذل النفس فيها اخا الهوى فان قبلتها منك يا حبذا البذل !
فمن لم يجُدْ في حب نُعمٍ بنفسه ولو جاد بالدنيا اليه انتهى البخل !

قلبي يحدثني

قلبي يحدثني بانك متلفي روحي فداك ، عرفتَ ام لم تعرفِ ! [1]
لم اقضِ حق هواك ان كنتُ الذي لم اقضِ فيه اسىً ، ومثلي من يفي

---

١) عرف : حفظ الصنيع ليكافئ عليه في وقته.

ما لي سوى روحي، وباذل روحه   في حب من يهواه ليس بمسرفِ
يا مانعي طيب المنام ، ومانحي   ثوب السقام به ، ووجدي المتلف
عطفاً على رمقي وما ابقيت لي   من جسمي المضنى وقلبي المدنف
اخفيت حبكم فاخفاني اسًى   حتى، لعمري ، كدت عني اختفي
ولقد اقول لمن تحرش بالهوى   عرضت نفسك للبلا فاستهدف
انتَ القتيل باي من احببته   فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي
قل للعذول : اطلتَ لومي طامعاً   أن الملام عن الهوى مستوقفي
دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى   فاذا عشقت فبعد ذلك عنف
برح الخفاء بحب من لو في الدجى   سفر اللثام ، لقلت يا بدر اختفِ
لو اسمعوا يعقوب ذكر ملاحة   في وجهه ، نسي الجمال اليوسفي
وعلى تفنن واصفيه بحسنه ،   يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف
ان زار يوماً ، يا حشاي تقطعي   كلفاً به ، او سار يا عين اذرفي
ما للنوى ذنب، ومن اهوى معي   ان غاب عن انسان عيني فهو في .

لقاء

ولما تلاقينا عِشاء وضمّنا   سَواء سبيلَي دارِها وخيامي
وملنا كذا شيئاً عن الحي حيث لا   رقيبٌ ولا واشٍ بزورِ كلام
فرشتُ لها خدي وطاءً على الثرى   فقالت : لك البشرى بلثم لثامي !
فما سمحت نفسي بذلك غيرةً   على صونها مني ، لعزّ مرامي
وبتنا ، كما شاء اقتراحي، على المنى   ارى المُلك ملكي والزمانَ غلامي

ابيات متفرقة

ته دلالًا فانت اهـل لذاكا   وتحكم ، فالحسن قد اعطاكا

ولك الامر فاقض ما انت قاضٍ فعليّ الجمـال قد ولّاكا
ما ثناني عنك الضنى ، فماذا يا مليحُ ، الدلالُ عني ثناكا ؟

❁

أَوميضُ برق بالابيرق لاحا ام في ربى نجد ارى مصباحا
ام تلك ليلى العامرية اسفرت ليلًا فصيرت المساء صباحا ؟

❁

خفف السير واتئدْ يا حادي انمـا انت سائق بفؤادي !

فلاسفة العرب

سلسلة دراسات ومختارات

ظهر منها :

١ — ابن الفارض (طبعة ثالثة)

٢ — ابو العلاء المعري (طبعة ثانية)

٣ — ابن خلدون (طبعة ثانية)

٤ — الغزالي : في جزئين (طبعة ثانية)

٥ — ابن طفيل (طبعة ثانية)

٦ — ابن رشد : في جزئين (طبعة ثانية)

٧ — اخوان الصفاء (طبعة ثانية)

٨ — الكندي

٩ — الفارابي : في جزئين

للمؤلف ايضاً :

قربان الاغاني : معرّب عن طاغور